

التاج في أخلاق الملوك

الجاحظ


التاج في أخلاق
الملوك
الجاحظ



التاج في أخلاق الملوك

الجاحظ

PJ7745.J3 T235 2016
جاحظ، ت. 968 أو 9.
التاج في أخلاق الملوك / الجاحظ؛ إعداد: بشير أبوالقرايا. ط. 1. - أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2016.
ص.: سم.- (عيون النثر العربي القديم)
تدمك: 8-169-02-9948-978
1. الأخلاق السياسية. أ. أبو القرايا، بشير. ب. العنوان. ج. السلسة

إعداد
د. بشير أبوالقرايا

خطوط
الفنان التشكيلي الخطاط
محمد مندي







الطبعة الأولى 1437هـ 2015م

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي
هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة – المجمع الثقافي

أبوظبي – الإمارات العربية المتحدة
ص ب: 2380
publication@tcaabudhabi.ae
www.tcaabudhabi.ae

المقدمة

هذه مقتطفات من ((كتاب التاج في أخلاق الملوك)) للجاحظ، ويعرف أيضًا بـ ((كتاب التاج)) أو ((كتاب أخلاق الملوك)) أو ((كتاب التاج في أخلاق الملوك في أمور الرياسة)). اعتمدنا فيها على النسخة التي حققها أحمد زكي باشا عام 1913، استنادًا إلى نسخة مخطوطة محفوظة في خزانة طوب قابو بإسطنبول ونسخة ثانية محفوظة في خزانة آيا صوفيا.

ويرى أحمد زكي باشا أن اسم ((التاج)) أطلق على الكتاب بعد وفاة مؤلفه، وخاصة أن كلمة ((التاج)) تظهر في نسخة آيا صوفيا فوق حرف الباء من لفظة ((كتاب)) مكتوبة بخط غير الخط الأصلي، ووضعت أسفل منها عبارة ((في أمور الرياسة)). إذ لا يوجد في كتب التراجم كتاب منسوب للجاحظ اسمه: ((التاج))، وإنما وجد كتاب عنوانه: ((أخلاق الملوك)). ويبقى الشك واردًا أن يكون الكتاب قد سماه صاحبه أو الذين جاؤوا بعده باسم التاج، ولكن ما من شك أنه هو كتاب أخلاق الملوك، وخاصة أنه كان معروفًا بأنه من تأليف الجاحظ، ويؤكد ذلك ما قاله ياقوت الحموي من أن للجاحظ كتابًا في أخلاق الملوك.

وقد ألف الجاحظ كتابه هذا وقدمه إلى الوزير العباسي الشهير الفتح بن خاقان، تضمن مدحًا له وتنويهًا بذكره، وهو وزير مغرم بالكتب وله مكتبة عظيمة لم ير الناس مثلها. وهو ما يعني أن الجاحظ وضع كتابه في العصر العباسي الأول، عصر القوة، عندما كانت بغداد عاصمة العالم، وضمنه كثيرًا من الآداب والتقاليد المتعارفة في عصره، فجعله مرآة تتجلى فيها مشاهد الخلفاء والكبراء في حفلاتهم الرسمية وحشودهم العامة، والطرق الملوكية والترتيبات السياسية التي اقتبس

العرب بعضها من الفرس، وخاصة على عهد المأمون، مما يظهر مقدار التأثير الكبير الذي كان للحضارة الفارسية في الحضارة الإسلامية على عهد العباسيين.

لذلك نجد الجاحظ يسرد في كتابه بعض عادات الفرس، مما يشير إلى استعانته بمؤلفاتهم التي نقلها المترجمون إلى العربية، ومنها مؤلف ابن المقفع عن كسرى أنو شروان، ويدل على ما راقه من آداب الفرس. وبينما ينقل عن آداب الفرس وأحوال ملوكهم، إذا هو يعقب بما يماثل هذه الأحوال أو ما يجانسها مما كان قد وقع للعرب قبل الإسلام أو بعد الإسلام.

ويبين الجاحظ في كتابه أحوال أمراء المؤمنين وسادات المسلمين في أحويتهم الخصوصية وأنديتهم العمومية، ووقف على سمرهم في سهرهم وقصصهم في ليالي أنسهم، إلى ما كانوا يصنعون في مجالي حظهم ومسارح لهوهم ومراتع طربهم، ناهيك عن مجالسهم في الأغاني والمنادمة ومجامعهم في الملاعبة والمراعبة ومشاهدهم في المسايرة والمباسطة. وهذا تبصرة بأساليبهم في اللبس والطيب وغير ذلك من الرسوم والآداب التي كانت معتبرة لدى السراة والأماثل في أيام العرب وفيما بعد الإسلام.

ويتجلى في الكتاب أسلوب الجاحظ المعهود في الاستطراد والاسترسال، وهما من أخص سجاياه، فهو مشهور بالتكرار والتكثير، عابه بهما بعض أهل زمانه، لكنه لم يرجع عن ديدنه وعادته بل نراه يذكر الحكمة التي تدعوه إلى ذلك.

وتكمن أهمية كتاب التاج في أخلاق الملوك للجاحظ في أنه يمثل نفيسة من نفائس تراثنا العلمي العربي في الفكر السياسي، مدعو لقراءتها وسبر غورها أصحاب الاختصاص والممارسة.

والجاحظ (163-255هـ = 780-869م) هو أبو عثمان، عمرو بن بحر بن محبوب الليثي الكناني بالولاء، كبير أئمة الأدب ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة، مولده ووفاته في البصرة، فلج في آخر عمره، وكان مشوّه الخلقة. مات والكتاب على صدره، حيث قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه.

له تصانيف كثيرة، حيث ترك نحوًا من 360 مؤلفًا، رآها سبط ابن الجوزي كلها تقريبًا في مشهد أبي حنيفة النعمان ببغداد، وإن لم يذكر شيئًا من أسمائها في كتابه مرآة الزمان. منها: الحيوان، البيان والتبيين، سحر البيان، البخلاء، المحاسن والأضداد، التبصر بالتجارة، تنبيه الملوك، الدلائل

والاعتبار على الخلق والتدبير، فضائل الأتراك، العرافة والفراسة، الربيع والخريف، الحنين إلى الأوطان، النبي والمتنبي، مسائل القرآن. وله أيضًا: العبر والاعتبار في النظر في معرفة الصانع وإبطال مقالة أهل الطبائع، فضيلة المعتزلة، صياغة الكلام، الأصنام، كتاب المعلمين، الجواري، النساء، البلدان، جمهرة الملوك، كتاب المغنين، الاستبداد والمشاورة في الحرب. كما أن له أربع رسائل: المعاد والمعاش، كتمان السر وحفظ اللسان، الجد والهزل، الحسد والعداوة. وله رسالة صغيرة: ذم القوّاد.

ولأبي حيان التوحيدي كتاب في أخباره سماه: تقريظ الجاحظ، ولشفيق جبري: الجاحظ معلم العقل والأدب، ولحسن السندوبي: أدب الجاحظ، ولفؤاد أفرام البستاني: الجاحظ، ومثله لحنا الفاخوري.

وقد حرصت على أن أطوف بكم على هذا الكتاب وأعرفكم بشخصية مؤلفه، قبل الشروع في قراءة هذه المقتطفات. وبهدف التبسيط، وضعنا عناوين إضافية، وقسمنا الكتاب بشكل أكثر سهولة ويسرًا، للاطلاع على هذه النفيسة من نفائس تراثنا العلمي العربي.

باب في الدخول على الملوك

دخول الأشراف

إن كان الداخل من الأشراف والطبقة العالية، فمن حق الملك أن يقف منه بالموضع الذي لا ينأى عنه، ولا يقرب منه، وأن يسلم عليه قائمًا.

فإن استدناه قرب منه، فأكب على أطرافه يقبلها، ثم تنحى عنه قائمًا، حتى يقف في مرتبة مثله.

فإن أومأ إليه بالقعود قعد، فإن كلمه أجابه بانخفاض صوتٍ، وقلة حركة، وإن سكت نهض من ساعته، قبل أن يتمكن به مجلسه، بغير تسليمٍ ثانٍ، ولا انتظار أمرٍ.

دخول الطبقة الوسطى

إن كان الداخل من الطبقة الوسطى، فمن حق الملك إذا رآه أن يقف، وإن كان نائيًا عنه.

فإن استدناه دنا خطًا ثلاثًا أو نحوها، ثم وقف أيضًا، فإن استدناه دنا نحوًا من دنوه الأول، ولا ينظر إلى تعب الملك في إشارة أو تحريك جارحة، فإن ذلك وإن كان فيه على الملك معاناة، فهو من حقه وتعظيمه.

وإن كان دخوله عليه من الباب الأول الذي يقابل وجه الملك ويحاذيه ـ وكان له طريق عن يمينه أو شماله ـ عدل نحو الطريق الذي لا يقابله فيه بوجهه، ثم انحرف نحو مجلس الملك، فسلم قائمًا ملاحظًا للملك. فإن سكت عنه انصرف راجعًا من غير سلام ولا كلام.

وإن استدناه دنا خطًا وهو مطرق، ثم رفع رأسه. فإن استدناه دنا خطًا أيضًا ثم رفع رأسه، حتى إذا أمسك الملك عن إشارة أو حركةٍ، وقف في ذلك الموضع الذي يقطع الملك فيه إشارته قائمًا.

فإن أومأ إليه بالقعود قعد مقعيًا أو جاثيًا، فإن كلمه أجابه بانخفاض صوتٍ، وقلة حركة، وحسن استماع. فإذا قطع الملك كلامه، قام فرجع القهقرى، فإن أمكنه أن يستتر عن وجهه بجدارٍ أو مسلكٍ لا يحاذيه إذا ولى، مشى كيف شاء.

استقبال الملك للملوك

على الملك إذا دخل عليه من يساويه في السلطان والتبع والعز والولادة والبيت، أن يقوم فيخطو إليه خطاً ويعانقه، ويأخذ بيده فيقعده في مجلسه، ويجلس دونه؛ لأن هذه حال يحتاج الملك إلى مثلها من الداخل عليه إذا زاره، فإن بخسه حظه ومنعه ما يجب له، لم يأمن الملك أن يفعل به مثل ذلك.

ومتى فعل كل واحدٍ منهما بصاحبه ماهو خارج عن النواميس والشرائع، تولد من ذلك فساد، وحدثت ضغائن بين الملوك يقع بسببها التباغض والتعادي والتحاسد. وإذا اجتمع ذلك في المملكة، كان سببًا للبوار، وداعيةً إلى التحارب.

وداع الملك للملوك

على الملك إذا أراد هذا الذي قدمنا صفته الانصراف، أن يقوم معه إذا قام، ويدعو بدابته ليركب حيث يراه، ويشيعه ماشيًا قبل ركوبه خطًا يسيرةً، ويأمر حشمه بالسعي بين يديه.

وعلى هذا كانت أخلاق آل ساسان من الملوك وأبنائهم، وبهذه السياسة أخذهم أردشير بن بابك، فلم تزل فيهم حتى ملك كسرى أبرويز فغيرها، فكان مما اعتد عليه شيرويه ابنه في ذكر مثالبه ومعايبه.

وقد قلنا: إن من حق الملك ألّا يطيل أحد عنده القعود، فإن أخطأ مخطئ في ذلك، فمن إذن الملك له بالانصراف أن يلحظه، فإذا عرف ذلك فلم يقم، كان ممن يحتاج إلى أدبٍ، وكان الذي

وصله بالملك ظالمًا له ولنفسه.

باب في مطاعمة الملوك

تخفيف الأكل بحضرة الملك

من حق الملك، إذا تبذل مع أحد، وأنس به حتى طاعمه، ألّا ينبسط بين يديه في مطعمه؛ فإن في ذلك خلالًا مذمومةً:

منها أن انبساطه يدل على شرهه.

ومنها أن في ذلك سوء أدب، وقلة تمييز.

ومنها أن فيه جرأةً على الملك ببسط اليد ومدها، وكثرة الحركة.

وليس في كثرة الأكل مع الملك معنًى يحمد، إلا أن يكون الآكل كميسرة الترّاس أو حفصٍ الكيّال، الذين إنما يحضرون لكثرة الأكل فقط.

فأما أهل الأدب وذوو المروءة، فإنما حظهم من مائدة الملك المرتبة التي رفعهم إليها، والأنس الذي خصهم به.

المنصور والفتى الهاشمي

دخل شاب من بني هاشم على المنصور، فاستجلسه ذات يومٍ، ودعا بغدائه، وقال للفتى: ادنه، فقال الفتى: قد تغديت. فكف عنه الربيع، حتى ظننت أنه لم يفطن لخطئه. فلما نهض للخروج أمهله، فلما كان من وراء الستر دفع في قفاه، فلما رأى الحجاب ذلك منه دفعوا في قفاه حتى أخرجوه من الدار.

فدخل رجال من عمومة الفتى، فشكوا الربيع إلى المنصور. فقال المنصور: إن الربيع لا يقدم على مثل هذا، إلا وفي يده حجة؛ فإن شئتم أغضيتم على ما فيها، وإن شئتم سألته، وأنتم تسمعون. قالوا: فسله.

فدعا الربيع، وقصوا قصته. فقال الربيع: هذا الفتى كان يسلم من بعيد وينصرف، فاستدناه أمير المؤمنين، حتى سلم عليه من قريب، ثم أمره بالجلوس، ثم تبذل بفضيلة المرتبة التي صيره فيها أن قال حين دعاه إلى طعامه: قد فعلت. وإذن ليس عنده لمن أكل مع أمير المؤمنين إلّا سدّ خَلّة الجوع، ومثل هذا لا يقومه القول دون الفعل.

على مائدة إسحاق بن إبراهيم

تخفيف الندماء والخواص على مائدة الأكابر

حدثني أحمد بن عبد الرحمن الحراني، قال: كنت أحضر على مائدة إسحاق بن إبراهيم، أنا وهاشم ابن أخي الأبرد والناقدي، فكنت أعد على مائدته ثلاثين طائرًا، فأما الحلو والحامض والحار والقار، فأكثر من أن أحصيه، فلا نرزأ من ذلك كله إلا مقدار ما يأكل الطائر، إنما نكسر الخبز بأظفارنا. قلت: فما كان ينشطكم؟ قال: لا، ولو فعل ما فعلناه. قال: فما هو إلا أن نتوارى عن عينه حتى ننتهب.

شرف مؤاكلة الملوك

يجب للملوك ألّا يشره أحد إلى طعامهم، ولا يكون غرضه أن يملأ بطنه، وينصرف إلى رحله، إلا أن يكون الآكل أخا الملك، أو ابنه، أو عمه، أو ابن عمه، أو من أشبه هؤلاء.

ويكون أيضًا ممن يقصر بعد الأكل ويطيل المنادمة، ويجعل ما يأكل غذاء يومه وليلته، إذ كان لا يمكنه الانصراف متى شاء.

وكانت ملوك فارس، إذا رأت أحدًا في هذه الحال التي وصفنا من شره المطعم والنهم، أخرجوه من طبقة الهزل، ومن باب التعظيم إلى باب الاحتقار والتصغير.

والملك وإن بسط الرجل لطعامه، فمن حقه على نفسه وحق الملك عليه ألّا يترك استعمال الأدب، ولا يميل إلى ما تهوى طبيعته؛ فإنه من عرف بالشره لم يجب له اسم الأدب، ومن عرف بالنهم زال عنه اسم التمييز.

وإذا وضع الملك بين يدي أحدٍ طعامًا، فليعلم ذلك الرجل أنه لم يضعه بين يديه ليأتي عليه، بل لعله إن كان لم يقصد بذاك إلى إكرامه أو مؤانسته، أن يكون أراد أن يعرف ضبطه نفسه إذا رأى ما يشتهي من بسطه لها.

وحسب الرجل إذا أتحفه الملك بتحفة على مائدته، أن يضع يده عليها؛ فإن ذلك يجزئه، ويزيد في آدابه.

بين معاوية والحسن بن علي

حين وضع معاوية بن أبي سفيان بين يدي الحسن بن علي دجاجةً ففكها، نظر إليه معاوية، فقال: هل كان بينك وبينها عداوة؟ فقال له الحسن: هل كان بينك وبين أمها قرابة؟

إن هذا الكلام الذي دار بينهما قد قرح في قلب كل واحدٍ منهما، ومعاوية لم يقل هذا القول لأنه كان يعظم عليه قدر الدجاجة، فكيف يكون ذلك، وهو يكتب إلى أطرافه وعماله وإلى زيادٍ بالعراق بإطعام السابلة والفقراء وذوي الحاجة؟ وله في كل يومٍ أربعون مائدة يتقسّمها وجوه جند الشام؟

ولكن علم أن من حق الملك توقير مجلسه وتعظيمه، وليس من التوقير والتعظيم مد اليد، وإظهار القرم، وشدة النهم، وطلب التشبع بين يدي الملوك وبحضرتها.

وعلى هذا كانت ملوك الأعاجم من لدن أردشير بن بابك إلى يزدجرد.

شره القضاة

يقال: إن سابور ذا الأكتاف، لما مات موبذان موبذ[1]، وصف له رجل من كورة إصطخر، يصلح لقضاء القضاة في العلم والتأله والأمانة. فوجه إليه، فلما قدم دخل عليه، ودعا بالطعام إليه، فدنا فأكل معه، فأخذ سابور دجاجةً فنصفها، ووضع نصفها بين يدي الرجل، ونصفها بين يديه، ثم أومأ إليه أن كل من هذه، ولا تخلط بها طعامًا، فإنه أمرأ لطعامك، وأخف على معدتك.

وأقبل سابور على النصف، فأكل كنحو ما كان يأكل، ففرغ الرجل من النصف قبل فراغ سابور، ثم مد يده إلى طعام آخر، وسابور يلحظه. فلما رفعت المائدة قال له: ودع وانصرف إلى بلدك؛ فإن آباءنا وسلفنا من الملوك كانوا يقولون: من شره بين يدي الملك إلى الطعام، كان إلى أموال الرعية والسوقة والوضعاء أشد شرهًا.

فلم يستكفه على ما كان أحضره له.

الملك وضيوفه على المائدة

من حق الملك ألّا يرفع أحد إليه طرفه إذا أكل، ولا يحرك يده معه في صحفة. ومن قوانين الملك أن توضع بين يدي كل رجلٍ صحفة، فيها كالذي بين يدي الملك من طعام غليظٍ أو دقيقٍ أو حارٍّ أو قار، ولا يخص الملك نفسه بطعام دون أصحابه؛ لأن في ذلك ضعةً على الملك، ودليلًا على الاستئثار.

ومن حق الملك ألّا يغسل أحد بحضرته يديه من خاصته وبطانته، إلا أن يكون معه من يساويه في الجاه والعز والبيت والولادة.

ومن العدل أن يعطي الملك كل أحد قسطه وكل طبقةٍ حقها، وأن تكون شريعة العدل في أخلاقه كشريعة ما يقتدي به من أداء الفرائض والنوافل التي تجب عليه رعايتها والمثابرة على التمسك بها، وإيناس الناس في بسط أيديهم في الطعام، حتى يسوي في ذلك بين الملوك والنمط الأوسط والعامة.

وليس أخلاق الملوك كأخلاق العامة، وكانوا لا يشبهون في شيء، وإنما تحسن كثرة الأكل مع الصديق والعشير والمساوي في منازل الدنيا من الرفعة والضعة، فأما الملوك فيرتفعون عن هذه الصفة، ويجلون عن هذا المقدار.

ومن حق الملك إذا رفع يديه عن الطعام، أن ينهض عن مائدته كلٌّ مِنَ الحافِّ بها، حتى يواروا عنه بجدارٍ أو حائلٍ غيره. فإن أراد الدخول كان ذلك بحيث لا يرون قيامه، وإذا أراد القعود لهم دخلوا إليه بإذن ثانٍ.

ومن قوانين الملك أن يكون منديل غَمَره[2] كمنديل وجهه، في النقاء والبياض، وألّا يعاد إليه إلا أن يغسل أو يجدد.

الحديث على المائدة

من حق الملك ألّا يحدث على طعامه بحديث جدٍّ ولا هزل، وإن ابتدأ بحديثٍ فليس من حقه أن يعارض بمثله، وليس فيه أكثر من الاستماع لحديثه، والأبصار خاشعة.

ولشيءٍ ما، كانت ملوك آل ساسان إذا قدمت موائدهم زمزموا عليها، فلم ينطق ناطق بحرفٍ حتى ترفع. فإن اضطروا إلى كلام، كان مكانه إشارة وإيماء يدل على الغرض الذي أرادوا، والمعنى الذي قصدوا.

وكانوا يقولون: إن هذه الأطعمة بها حياة هذا العالم، فينبغي للإنسان أن يجعل ذهنه في مطعمه، ويشغل روحه وجوارحه فيه؛ لأن تأخذ كل جارحةٍ بقسطها من الطعام، فيغتذي بها البدن والروح الحيوانية التي في القلب، والطبيعة التي في الكبد، اغتذاءً تامًّا، وتقبله الطبيعة قبولًا جامعًا.

باب في المنادمة

طبقات الندماء

من أخلاق الملك أن يجعل ندماءه طبقات ومراتب، وأن يخص ويعم، ويقرب ويباعد، ويرفع ويضع، إذ كانوا على أقسامٍ وأدوات.

فإنا قد نرى الملك يحتاج إلى الوضيع للهوه، كما يحتاج إلى الشجاع لبأسه، ويحتاج إلى المضحك لحكايته، كما يحتاج إلى الناسك لعظته، ويحتاج إلى أهل الهزل، كما يحتاج إلى أهل الجد والعقل، ويحتاج إلى الزامر المطرب، كما يحتاج إلى العالم المتقن.

وهذه أخلاق الملوك، أن يحضرهم كل طبقةٍ؛ إذ كانوا ينصرفون من حال جدٍّ إلى حال هزلٍ، ومن ضحك إلى تذكير، ومن لهوٍ إلى عظةٍ. فكل طبقةٍ من هذه الطبقات ترفع مرةً وتحط أخرى، وتعطى مرةً وتحرم أخرى، خلا الأشراف والعلماء؛ فإن الذي يجب لهم رفعة المرتبة، وإعطاء القسط من الميزة، والنصفة من المعاشرة، ما لزموا الطاعة ورعوا حقها.

في حضرة الملك

ليس من حق الملك أن يبرح أحد من مجلسه إلا لقضاء حاجة، فإذا أراد ذلك فمن الواجب ألّا يلاحظه، فإن سكت الملك قام بين يديه، ثم لاحظه، فإن نظر إليه مضى لحاجته. فإذا رجع قام ماثلًا بين يديه أبدًا، وإن طال ذلك، حتى يومئ إليه بالقعود، فإذا قعد فمقعيًا أو جاثيًا، فإن نظر إليه بعد قعوده، فهو إذنه له بالتمكن في قعوده.

وليس له أن يختار كمية ما يشرب ولا كيفيتها، إنما هذا إلى الملك، إلا أن من حقه على الملك أن يأمر بالعدل عليه، والنصفة له، ولا يجاوز به حد طاقته، ولا وسع استطاعته، فيخرج به من ميزان القسط، وحد القصد؛ لأنه لا يأمن أن يتلف نفسًا، وهو يجد إلى إحيائها سبيلًا.

ومن أخلاق الملك السعيد أن يحرص على إحياء بطانته، حرصه على إحياء نفسه؛ إذ كان بهم نظامه.

مراتب الندماء والمغنين

بنا حاجة إلى الإخبار عن مراتب الطبقات الثلاث من الندماء والمغنين؛ لأنها داخلة في أخلاق الملوك.

ولنبدأ بملوك العجم؛ إذ كانوا هم الأول في ذلك، وعنهم أخذنا قوانين الملك والمملكة، وترتيب الخاصة والعامة، وسياسة الرعية، وإلزام كل طبقة حظها، والاقتصار على جديلتها[3]:

كان أردشير بن بابك أول من رتب الندماء، وأخذ بزمام سياستهم، فجعلهم ثلاث طبقات:

فكانت الأساورة[4] وأبناء الملوك في الطبقة الأولى، وكان مجلس هذه الطبقة من الملك على عشرة أذرع من الستارة.

ثم الطبقة الثانية، كان مجلسها من هذه الطبقة على عشرة أذرع، وهم بطانة الملك وندماؤه ومحدثوه من أهل الشرف والعلم.

ثم الطبقة الثالثة، كان مجلسهم على عشرة أذرع من الثانية، وهم المضحكون وأهل الهزل والبطالة.

غير أنه لم يكن في هذه الطبقة الثالثة خسيس الأصل ولا وضيعه، ولا ناقص الجوارح، ولا فاحش الطول والقصر، ولا مَؤْوف[5]، ولا مَرْميٌّ بأُبنةٍ[6]، ولا مجهول الأبوين، ولا ابن صناعة دنيئة، كابن حائك أو حجام، ولو كان يعلم الغيب مثلًا.

وكان أردشير يقول: ما شيء أضر على نفس ملكٍ من معاشرة سخيفٍ، أو مخاطبة وضيعٍ؛ لأنه كما أن النفس تصلح على مخاطبة الشريف الأديب الحسيب، كذلك تفسد بمعاشرة الدنيء الخسيس حتى يقدح ذلك فيها، ويزيلها عن فضيلتها. وكما أن الريح إذا مرت بطيبٍ، حملت طيبًا

تحيا به النفس، وتقوى به جوارحها، كذلك إذا مرت بالنتن فحملته، ألمت له النفس، وأضر بأعلاقها إضرارًا تامًّا)).

أقسام الناس

أقسام الناس أربعة: الأساورة من أبناء الملوك، النساك وسدنة بيوت النيران، الأطباء والكتاب والمنجمون، الزراع والمهان وأضرابهم.

وكان أردشير يقول: ما شيء أسرع في انتقال الدول وخراب المملكة من انتقال هذه الطبقات عن مراتبها، حتى يرفع الوضيع إلى مرتبة الشريف، ويحط الشريف إلى مرتبة الوضيع.

وكان الذي يقابل الطبقة الأولى من الأساورة وأبناء الملوك، أهل الحذاقة بالموسيقيات والأغاني، فكانوا بإزاء هؤلاء نصب خط الاستواء.

وكان الذي يقابل الطبقة الثانية من ندماء الملك وبطانته، الطبقة الثانية من أصحاب الموسيقيات.

وكان الذي يقابل الطبقة الثالثة من أصحاب الفكاهات والمضحكين أصحاب الونج[7] والمعازف والطنابير، وكان لا يزمر الحاذق من الزامرين إلا على الحاذق من المغنين. وإن أمره الملك بذلك، راجعه واحتج عليه، وقلما كانت ملوك الأعاجم خاصة تأمر أن يزمر على المغني إلا من كان معه في أسلوب واحد؛ إذ لم يكن من شأنهم أن ينقلوا أحدًا من طبقة وضيعة إلى طبقة رفيعة.

إلا أن الملك كان ربما غلب عليه السكر حتى يؤثر فيه، فيأمر الزامر من الطبقة الثانية أو الثالثة أن يزمر على المغني من الطبقة الأولى، فيأبى ذلك، حتى إنه ربما ضربه الخدم بالمراوح والمذاب فيكون من اعتذاره أن يقول: إن كان ضربي بأمر الملك وعن رأيه، فإنه سيرضى عني إذا صحا، بلزومي مرتبتي.

وكان أردشير قد وكل غلامين ذكيين، لا يفارقان مجلسه، بحفظ ألفاظه عند الشرب والمنادمة. فأحدهما يُمِلّ والآخر يكتب حرفًا حرفًا، وهذا إنما يفعلانه، إذا غلب عليه السكر، فإذا

أصبح، ورفع عن وجهه الحجاب، قرأ عليه الكاتب كل ما لفظ به في مجلسه إلى أن نام. فإذا قرأ عليه ما أمر به الزامر، ومخالفة الزامر أمره، دعا بالزامر، فخلع عليه وجزاه الخير، وقال: ((أصبت فيما فعلت، وأخطأ الملك فيما أمرك به. فهذا ثواب صوابك، وكذلك العقوبة لمن أخطأ)).

وما ذاك إلا حثًا على لزوم سننهم، وحفظ نواميسهم، وأخذ العامة بالسياسة التامة، والأمر اللازم.

انقلاب الحال في عهد بهرام جور

لما ملك بهرام جور بن يزدجرد، أقر مرتبة الأشراف وأبناء الملوك وسدنة بيوت النيران على ما كانت، وسوى بين الطبقتين من الندماء والمغنين، ورفع من أطربه، وإن كان في أوضع الدرجات، إلى الدرجة الأولى، وحط من قصر عن إرادته إلى الطبقة الثانية، فأفسد سيرة أردشير في المغنين وأصحاب الملاهي خاصةً. فلم يزل الأمر على ذلك، حتى ملك كسرى أنوشروان، فرد الطبقات إلى مراتبها الأولى.

وكانت ملوك الأعاجم كلها من لدن أردشير بن بابك إلى يزدجرد تحتجب عن الندماء بستارة، فكان يكون بينه وبين أول الطبقات عشرون ذراعًا؛ لأن الستارة من الملك على عشرة أذرع، والستارة من الطبقة الأولى على عشرة أذرع.

وكان الموكل بحفظ الستارة رجلًا من أبناء الأساورة، يقال له: ((خرم باش))، فإذا مات هذا الرجل، وكل بها آخر من أبناء الأساورة، وسمي بهذا، فكان: ((خرم باش)) إذا جلس الملك لندمائه وشغله، أمر رجلًا أن يرتفع على أعلى مكان في قرار دار الملك، ويغرد بصوت رفيع يسمعه كل من حضر، فيقول: يا لسان، احفظ رأسك فإنك تجالس في هذا اليوم ملك الملوك! ثم ينزل.

فكان هذا فعلهم في كل يوم يجلس فيه الملك للهوه، ولا يجترئ أحد من خلق الله أن يدير لسانه في فيه بخير ولا غيره، حتى تحرك الستارة، فيطلع القائم عليها، فيؤمر بأمرٍ فينفذه، ويقول: افعل يا فلان كذا، وتغني يا فلان كذا وكذا.

وكان الندماء من العظماء والأشراف وأبناء الملوك وإخوة الملك وعمومته وبني عمه، وأوضع الطبقات في مجلس الملك، في نقابٍ واحدٍ إطراقًا وإخباتًا وسكون طائر، وقلة حركة.

فلم يزل أمر الملوك من الأعاجم كذلك، حتى ملك الأَرْدَوان الأحمر، فكان يقول: من كانت له منكم حاجة، فليكتبها في رقعة، وليرفعها قبل شغلي، فأفهم ما فيها، ويخرج إليه أمري، وعقلي صحيح، وفكري جامع. فمن سأل في غير هذا الوقت حاجةً، ضربت عنقه. وهو أول من فتح هذا، وكان لا يرد سائلًا، ولا يعطي مبتدئًا.

فلم يزل الأمر على ذلك، حتى ملك بهرام جور، فكان يقول للندماء: إذا رأيتموني قد طربت، وخرجت من باب الجد إلى باب الهزل، فسلوا حوائجكم. وكان يوكل بحوائجهم صاحب الستارة، فكان إذا سكر مد الناس أيديهم برقاعهم، فأخذها صاحب الستارة، فأنفذها إليه، فأخذها بيده وضمها عليها، ثم رمى بها من غير أن ينظر في شيء منها، ويقول: أنفذوا كل ما فيها. فكان ذلك ربما بلغ في ليلة واحدة من سؤالٍ في إقطاع أو قضاء دينٍ أو طلب منحة ألف ألفٍ أو أكثر، إلا أن ذلك لم يكن تباعًا.

وكان إذا رفع أحدهم في رقعته ما ليس يجوز لمثله، وهو خارج من حد القصد وداخلٌ في باب الإفراط، لم تقض له حاجة، وسمي جاهلًا، ولم تؤخذ له رقعة بعدها أبدًا.

أحوال الأمويين

لما ملك يزيد بن عبد الملك سوى بين الطبقة العليا والسفلى، وأفسد أقسام المراتب، وغلب عليه اللهو، واستخف بآيين[8] المملكة، وأذن للندماء في الكلام والضحك والهزل في مجلسه والرد عليه. وهو أول من شتم في وجهه من الخلفاء، على جهة الهزل والسخف.

أما معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد، فكان بينهم وبين الندماء ستارة، وكان لا يظهر أحد من الندماء على ما يفعله الخليفة، إذا طرب للمغنى والتذه، حتى ينقلب ويمشي ويحرك كتفيه، ويرقص، ويتجرد حيث لا يراه إلا خواص جواريه.

إلا أنه كان إذا ارتفع من خلف الستارة صوت أو نعيرُ طربٍ أو رقص أو حركة بزفيرٍ تجاوز المقدار، قال صاحب الستارة: حسبك يا جارية !كفي! انتهى! أقصري! يوهم الندماء أن الفاعل لذلك بعض الجواري.

فأما الباقون من خلفاء بني أمية، فلم يكونوا يتحاشون أن يرقصوا أو يتجردوا، ويحضروا عراةً بحضرة الندماء والمغنين.

وعلى ذلك لم يكن أحد منهم في مثل حال يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد، في المجون والرفث بحضرة الندماء، والتجرد، ما يباليان ما صنعا.

أما عمر بن عبد العزيز فما طنَّ في سمعه حرف غناء، منذ أفضت الخلافة إليه إلى أن فارق الدنيا. أما قبلها، وهو أمير المدينة، فكان يسمع الغناء، ولا يظهر منه إلا الأمر الجميل. وكان ربما صفق بيديه، وربما تمرغ على فراشه، وضرب برجليه وطرب، فأما أن يخرج عن مقدار السرور إلى السخف فلا.

أبو العباس

كان أبو العباس في أول أيامه يظهر للندماء، ثم احتجب عنهم بعد سنة.

وكان يطرب ويبتهج ويصيح من وراء الستارة: أحسنت والله! أعد هذا الصوت! فيعاد له مرارًا. فيقول في كلها: أحسنت.

وكانت فيه فضيلة لا تجدها في أحد؛ كان لا يحضره نديم ولا مغنٍّ ولا ملهٍ، فينصرف إلا بصلةٍ أو كسوةٍ، قلت أم كثرت. وكان لا يؤخر إحسان محسنٍ لغدٍ، ويقول: العجب ممن يفرِّح إنسانًا، فيتعجل السرور، ويجعل ثواب مَن سرّه تسويفًا وعِدَةً.

فكان في كل يومٍ وليلة يقعد فيه لشغله، لا ينصرف أحد ممن حضره إلا مسرورًا، ولم يكن هذا لعربي ولا عجمي قبله، غير أنه يحكى عن بهرام جور ما يقارب هذا.

المنصور

لم يكن أبو جعفر المنصور يظهر لنديم قط، ولا رآه أحد يشرب غير الماء. وكان بينه وبين الستارة عشرون ذراعًا، وبين الستارة والندماء مثلها، فإذا غناه المغني فأطربه، حركت الستارة بعض الجواري، فاطلع إليه الخادم صاحب الستارة فيقول: قل له: أحسنت، بارك الله فيك! وربما أراد أن يصفق بيديه، فيقوم عن مجلسه، ويدخل بعض حجر نسائه، فيكون ذاك هناك.

وكان لا يثيب أحدًا من ندمائه وغيرهم درهمًا، فيكون له رسمًا في ديوان، ولم يقطع أحدًا ممن كان يضاف إلى ملهيةٍ أو ضحك أو هزلٍ موضع قدم من الأرض، وكان يحفظ كل ما أعطى واحدًا منهم عشر سنين، ويحسبه، ويذكره له.

المهدي

كان المهدي في أول أمره يحتجب عن الندماء، متشبهًا بالمنصور نحوًا من سنة، ثم ظهر لهم.

فأشار عليه أبو عونٍ بأن يحتجب عنهم، فقال: إليك عني، يا جاهل! إنما اللذة في مشاهدة السرور وفي الدنوّ ممّن سرّني، فأما من وراء وراء، فما خيرها ولذتها؟ ولو لم يكن في الظهور للندماء والإخوان إلا أني أعطيهم من السرور بمشاهدتي مثل الذي يعطونني من فوائدهم، لجعلت لهم في ذلك حظًّا موفرًا.

وكان كثير العطايا، وافرها، قل من حضره إلا أغناه، وكان لين العريكة، سهل الشريعة، لذيذ المنادمة، قصير المناومة، ما يمل نديمًا ولا يتركه إلا عن ضرورة، قطيع الخنا، صبورًا على الجلوس، ضاحك السن، قليل الأذى والبذاء.

الهادي

كان الهادي شكس الأخلاق، صعب المرام، قليل الإغضاء، سيّئ الظن، قل من توقاه وعرف أخلاقه إلا أغناه، وما كان شيء أبغض إليه من ابتدائه بسؤال.

وكان يأمر للمغني بالمال الجزيل، فيقول: لا يعطيني بعدها شيئًا، فيعطيه بعد أيام مثل تلك العطية.

ويقال: إنه قال يومًا، وعنده ابن جامع وإبراهيم الموصلي ومعاذ بن الطبيب، وكان أول من دخل عليه معاذ، وكان حاذقًا بالأغاني عارفًا بها: من أطربني اليوم منكم، فله حكمه. فغناه ابن جامع غناءً لم يحركه، وكان إبراهيم قد فهم غرضه، فغناه:

سليمى أجمعت بينا

فأين تظنها أينا؟

فطرب حتى قام عن مجلسه، ورفع صوته، وقال: أعد بالله، وبحياتي! فأعاد، فقال: أنت صاحبي، فاحتكم. فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين، حائط عبد الملك بن مروان وعينه الخرارة بالمدينة. قال: فدارت عيناه في رأسه، حتى صارتا كأنهما جمرتان، ثم قال: يا بن اللخناء! أردت أن تسمع العامة أنك أطربتني، وأني حكمتك فأقطعتك؟! أما والله، لولا بادرة جهلك التي غلبت على صحيح عقلك وفكرك، لضربت الذي فيه عيناك! ثم سكت هنيهةً.

قال إبراهيم: فرأيت ملك الموت قائمًا بيني وبينه ينتظر أمره.

ثم دعا إبراهيم الحراني، فقال: خذ بيد هذا الجاهل، فأدخله بيت المال، فليأخذ منه ما شاء! فأخذ الحراني بيدي، حتى دخل بي بيت المال، فقال: كم تأخذ؟ فقلت: مئة بدرة. فقال: دعني أؤامره. قلت: فآخذ تسعين. قال: حتى أؤامره. قلت: فثمانين. قال: لا. فأبى إلا أن يؤامره، فعرفت غرضه، فقلت له: آخذ سبعين لي، ولك ثلاثون. قال: شأنك. قال: فانصرف بسبعمئة ألف، وانصرف ملك الموت عن الدار.

الرشيد

كان الرشيد في أخلاق أبي جعفر المنصور، يمتثلها كلها إلا في العطايا والصلات والخلع، فإنه كان يقفو فعل أبي العباس والمهدي. ومن خبرك أنه رآه قط وهو يشرب إلا الماء، فكذبه، وكان لا يحضر شربه إلا خاص جواريه، وربما طرب للغناء، فتحرك حركةً بين الحركتين في القلة والكثرة.

وهو ـ من بين خلفاء بني العباس ـ من جعل للمغنين مراتب وطبقات، على نحو ما وضعهم أردشير بن بابك وأنوشروان.

فكان إبراهيم الموصلي، وإسماعيل أبو القاسم بن جامع، وزلزل منصور الضارب، في الطبقة الأولى، وكان زلزل يضرب، ويغني هذان عليه. والطبقة الثانية: سليم بن سلام أبو عبيد الله الكوفي، وعمرو الغزال، ومن أشبههما. والطبقة الثالثة: أصحاب المعازف والونج والطنابير.

وعلى قدر ذلك كانت تخرج جوائزهم وصلاتهم، وكان إذا وصل واحدًا من الطبقة الأولى بالمال الكثير، جعل لصاحبيه اللذين معه في الطبقة نصيبًا منه، وجعل للطبقتين اللتين تليانه منه أيضًا نصيبًا. وإذا وصل أحدًا من الطبقتين الأخريين بصلة، لم يقبل واحد من الطبقة العالية منه درهمًا، ولا يجترئ أن يعرض ذلك عليه.

وسأل الرشيد يومًا برصوما الزامر، فقال له: يا إسحاق! ما تقول في ابن جامع؟ فحرك رأسه، وقال: خمر قُطْرَبُّل، يعقل الرجل، ويذهب العقل. قال: فما تقول في إبراهيم الموصلي؟ قال: بستان فيه خوخ وكمثرى وتفاح وشوك وخرنوب. قال: فما تقول في سليم بن سلام؟ فقال: ما أحسن خضابه! قال: فما تقول في عمرو الغزال؟ قال: ما أحسن بنانه!

عزف منصور زلزل

كان منصور زلزل من أحسن وأحذق من برأ الله بالجس، فكان إذا جس العود، فلو سمعه الأحنف ومن تحالم في دهره كله، لم يملك نفسه حتى يطرب.

قال إبراهيم: فغنيت يومًا على ضربه، فخطأني. فقلت لصاحب الستارة: هو، والله، أخطأ! قال: فرفع الستارة، ثم قال: يقول لك أمير المؤمنين: أنت، والله، أخطأت! فَحَمِيَ زلزل، وقال: يا إبراهيم، تخطئني؟ فوالله ما فتح أحد من المغنين فاه بغير لفظٍ إلا عرفت غرضه! فكيف أخطئ، وهذه حالي؟ فأداها صاحب الستارة، فقال الرشيد: قل له: صدقت! أنت كما وصفت نفسك، وكذب إبراهيم وأخطأ.

قال إبراهيم: فغمني ذلك، فقلت لصاحب الستارة: أبلغ أمير المؤمنين، سيدي ومولاي، أن بفارس رجلًا يقال له سنيد، لم يخلق الله أضرب منه بعود، ولا أحسن مجسًّا، وإن بعث إليه أمير المؤمنين فحمله، عرف فضله، وتغنيت على ضربه. فإن زلزلًا يكايدني مكايدة القصاص والقرادين.

فوجه الرشيد إلى الفارسي، فحمل على البريد، فأقلق ذلك زلزلًا وغمه. فلما قدم بالفارسي أحضرنا، وأخذنا مجالسنا، وجاؤوا بالعيدان قد سويت. وكذلك كان يفعل في مجلس الخلافة، ليس

يدفع إلى أحدٍ عوده، فيحتاج إلى أن يحركه؛ لأنها قد سويت وعُلِّقت مَثالثُها مشاكلةً للزِّيَرة على الدقة والغلظ.

فلما وضع عود الفارسي في يديه، نظر إليه منصور زلزل فأسفر وجهه، وأشرق لونه، فضرب وتغنى عليه إبراهيم. ثم قال صاحب الستارة لزلزل: يا منصور، اضرب. قال: فلما جس العود، ما تمالك الفارسي أن وثب من مجلسه بغير إذن، حتى قبل رأس زلزلٍ وأطرافه، وقال: مثلك ـ جعلت فداك ـ لا يمتهن ويستعمل، مثلك يعبد. فعجب الرشيد من قوله، وعرف فضيلة زلزل على الفارسي، فأمر له بصلةٍ، ورده إلى بلده.

وكان منصور زلزل من أسخى الناس وأكرمهم؛ نزل بين ظهراني قومٍ، وقد كان يحل لهم أخذ الزكاة، فما مات حتى وجبت عليهم الزكاة.

مزمار إسحاق برصوما

كان إسحاق برصوما في الطبقة الثانية، فطرب الرشيد يومًا لزمره، فقال له صاحب الستارة: يا إسحاق! ازمر على غناء ابن جامع. قال: لا أفعل. قال: يقول لك أمير المؤمنين، ولا تفعل؟ قال: إن كنت أزمر على الطبقة العالية، رفعت إليها، فأما أن أكون في الطبقة الثانية، وأزمر على الأولى، فلا أفعل. فقال الرشيد لصاحب الستارة: ارفعه إلى الطبقة الأولى، فإذا قمت فادفع البساط الذي في مجلسهم إليه. فرفع إسحاق إلى الطبقة العالية، وأخذ البساط، وكان يساوي ألفي دينار.

فلما حمله إلى منزله، استبشرت به أمه وأخواته، وكانت أمه نبطية لكناء. فخرج برصوما عن منزله لبعض حوائجه، وجاء نساء جيرانه يهنئن أمه بما خص به دون أصحابه، ويدعون لها. فأخذت سكينًا، وجعلت تقطع لكل من دخل عليها قطعة من البساط، حتى أتت على أكثره. فجاء برصوما، فإذا البساط قد تقسم بالسكاكين، فقال: ويلك ما صنعت؟ قالت: لم أدر، ظننت أنه كذا يقسم. فحدث الرشيد بذلك، فضحك، ووهب له آخر.

صوت إبراهيم الموصلي

غنى إبراهيم الموصلي أمير المؤمنين هارون صوتًا، فكاد يطير طربًا، فاستعاده عامة ليله، وقال: ما رأيت صوتًا يجمع السخاء والطرب وجودة الصنعة والسخف غير هذا الصوت!

فأقبل إبراهيم، فقال: يا أمير المؤمنين! لو وهب لك إنسان مئة ألف درهم، أو لو وجدت مئة ألف درهم مطروحةً، كنت أسر بها أو بهذا الصوت؟ قال: والله، لأنا أسر بهذا الصوت مني بألف ألف، ألف ألف.

قال: فلو فقدت من بيت مالك مئة ألف كان أشد عليك، أو لو فقدت هذا الصوت وفاتك هذا السرور؟ قال: بل ألف ألف، وألف ألف أهون علي.

قال: فلم لا تهب مئة ألف أو مئتي ألف لمن أتاك بشيءٍ فَقْدُ ألفي ألفٍ أهون عليك منه؟ فأمر له بمئتي ألف درهم.

الأمين

قال إسحاق: ما أعجب أمر الأمين كله! فأما تبذله، فما كان يبالي أين قعد، ومع من قعد. وكان لو كان بينه وبين ندمائه مئة حجاب، خرقها كلها، وألقاها عن وجهه، حتى يقعد حيث قعدوا.

وكان من أعطى الخلق لذهبٍ وفضة، وأنهبهم للأموال إذا طرب أو لها. وقد رأيته وقد أمر لبعض أهل بيته في ليلةٍ بوقر زورق ذهبًا، فانصرف به. وأمر لي ذات ليلة بأربعين ألف دينار، فحملت أمامي.

ولقد غناه إبراهيم بن المهدي غناءً لم أرتضه، فقام عن مجلسه، فأكب عليه، فقبل رأسه. فقام إبراهيم، فقبل ما وطئت رجلاه من بساطه، فأمر له بمئتي ألف درهم.

ولما أحيط به، وبلغت حجارة المنجنيق بساطه، كنا عنده، فغنته جارية له بغناءٍ تركت فيه شيئًا لم تجد حكايته. فصاح: يا زانية! تغنينني الخطأ؟! خذوها! فحملت، وكان آخر العهد بها.

المأمون وإسحاق الموصلي

أقام بعد قدومه عشرين شهرًا لم يسمع حرفًا من الغناء، ثم سمعه من وراء حجابٍ، متشبهًا بالرشيد، فكان كذلك سبع حججٍ، ثم ظهر للندماء والمغنين.

وكان حين أحب السماع ظاهرًا بعينه، أكبرَ ذاك أهلُ بيته وبنو أبيه.

ويقال: إنه سأل عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي، فغمزه بعض من حضر، وقالوا: ما يغادر تيهًا وبأوًا[9] فأمسك عن ذكره.

أخلاق الملك السعيد

من أخلاق الملك السعيد ترك القطوب في المنادمة، وقلة التحفظ على ندمائه، ولا سيما إذا غلب أحدهم على عقله، وكان غيره أملك به منه بنفسه.

وللسكر حد، إذا بلغه نديم الملك، فأجمل الأمور وأحراها بأخلاقه ألّا يؤاخذه بزلةٍ إن سبقته، ولا بلفظةٍ إن غلبت لسانه، ولا بهفوةٍ كانت إحدى خواطره. والحد في ذلك ألّا يفعل ما يقول، ولا ما يقال له، وإن خلي ونفسه رمى بها في مهواة، وإن أراد أحد أخذ ثيابه لم يمانعه.

فأما إذا كان ممن يعرف ما يأتي وما يذر، وكان إذا رام أحد أخذ ما معه قاتله دونه، وكان إذا شتم غضب وانتصر، وإذا تكلم أفصح، وقل سقطه، فإذا كانت هذه صفته، ثم جاءت منه زلة، فعلى عمدٍ أتاها، وبقصدٍ فعلها. فالملك جدير أن يعاقبه بقدر ذنبه؛ فإن ترك عقوبة هذا ومن أشبهه، قدح في عزه وسلطانه.

ومن الحق على الملك ألّا يجاوز بأهل الجرائم عقوبة جرائمهم؛ فإن لكل ذنبٍ عقوبةً؛ إما في الشريعة والنواميس، وإما في الإجماع والاصطلاح. فمن ترك العقوبة في موضعها، فبالحرى أن يعاقب من لا ذنب له، وليس بين ترك العقوبة إذا وجبت وعقوبة من لا ذنب له فرق، وإنما وضع الله الملوك بهذه المواضع الرفيعة، ليقوموا كل ميل، ويدعموا كل إقامة.

تطيب الملك وتجمله

من أخلاق الملك ألّا يشارك بطانته وندماءه في مس طيبٍ ولا مجمرٍ؛ فإن هذا وما أشبهه يرتفع الملك فيه عن مساواة أحد، وكذا يجب على بطانة الملك وقرابته ألّا يمسوا طيبًا إذا تطيب؛ لتفرد الملك بذلك دونهم. وليس الطيب كالطعام والشراب اللذين لا بد من مشاركة الندماء فيهما.

فأما كل ما أمكن الملك أن ينفرد به دون خاصته وحامّته، فمن أخلاقه ألّا يشارك أحدًا فيه. وكذا حكي عن أنوشروان ومعاوية بن أبي سفيان، وبعض أهل العلم يحكي عن الرشيد ما يقرب من هذا. وأولى الأمور بأخلاق الملك، إن أمكنه التفرد بالماء والهواء، ألّا يشرك فيهما أحدًا؛ فإن البهاء والعز والأبهة في التفرد.

ألا ترى أن الأمم الماضية من الملوك، لم يكن شيء أحب إليهم من أن يفعلوا شيئًا تعجز عنه الرعية، أو يتزيوا بزي ينهون الرعية عن مثله؟!

فمن ذلك أردشير بن بابك، وكان أنبل ملوك بني ساسان، كان إذا وضع التاج على رأسه، لم يضع أحد في المملكة على رأسه قضيب ريحانٍ متشبهًا به؛ وكان إذا ركب في لبسةٍ، لم ير على أحدٍ مثلها؛ وإذا تختم بخاتمٍ، فحرام على أهل المملكة أن يتختموا بمثل ذلك الفص، وإن بعد في التشابه.

وهذه من فضائل الملوك، وطاعة أهل المملكة أن تتحامى أكثر زي الملك، وأكثر أحواله وشيمه، حتى لا يأتي ما لا بُدَّ لها منه.

وهذا أبو أحيحة سعيد بن العاص؛ كان إذا اعتم بمكة، لم يعتم أحد بعمةٍ ما دامت على رأسه. وهذا الحجاج بن يوسف؛ كان إذا وضع على رأسه طويلة[10]، لم يجترئ أحد من خلق الله أن يدخل

وعلى رأسه مثلها. وهذا عبد الملك بن مروان؛ كان إذا لبس الخف الأصفر، لم يلبس أحد من الخلق خفًّا أصفر حتى ينزعه.

مكالمة الندماء للملوك

من حق الملك ألّا يكلمه أحد من الندماء مبتدئًا ولا سائلًا لحاجة، حتى يكون هو المبتدئ بذلك. فإن جهل أحد ما يلزمه في ذلك، تقدم إليه فيما يجب عليه، فإن عاد فعلى الموكل بأمر الدار أن يحسن أدبه، وألّا يأذن له في الدخول، حتى يكون الملك يبتدئ ذكره، ثم يوعز إليه أنه إن عاد أسقطت مرتبته، فلم يطأ بساط الملك.

وكان شيرويه بن أبرويز يقول: إنما تعذر البطانة برفع حوائجها إلى الملوك عند ضيقةٍ تكون، أو عند جفوةٍ تنالهم من ملوكهم، أو عند موتٍ يحدث لهم، أو عند تتابع أزمةٍ. فإذا كان ذلك، فعلى الملك تعهد ذلك من خاصته، حتى يصلح لهم أمورهم، ويسد خلتهم. فإذا كانوا من الكفاية في أقصى حدودها، ومن خفض العيش في أرفع خصائصه، ومن ذات اليد وإدرار العطايا في أتم صفاتها، ثم فتح أحد فاه بطلب ما فوق هذه الدرجة، فالذي حداه على ذلك الشره والمنافسة، فكان جديرًا أن تنزع كفايته من يده، وينقل إلى الطبقة الخسيسة، فيلزم أذناب البقر، وحراثة الأرض.

إنعام الملوك ومنتهم

من أخلاق الملك ألّا يمن بإحسان سبق منه، ما استقامت له طاعة من أنعم عليه، ودامت له ولايته، إلا أن يخرج من طاعةٍ إلى معصيةٍ.

فإذا فعل ذلك، فمن أخلاقه أن يمن عليه أولًا بإحسانه، ويذكره بلاءه عنده، وقلة شكره ووفائه، ثم يكون من وراء ذلك عقوبته بقدر ما يستحق ذلك الذنب في غلظه ولينه.

ويقال: إن الحسن بن سهل جلس في مصلى الجماعة لنعيم بن خازم، فأقبل نعيم حافيًا حاسرًا، وهو يقول: ذنبي أعظم من السماء! ذنبي أعظم من الهواء! ذنبي أعظم من الماء!

فقال له الحسن بن سهل: على رسلك! تقدمت منك طاعة، وكان آخر أمرك إلى توبة، وليس للذنب بينهما مكان، وليس ذنبك في الذنوب بأعظم من عفو أمير المؤمنين في العفو.

العفو عند المقدرة

من أخلاق الملك السعيد ألّا يعاقب وهو غضبان؛ لأن هذه حال لا يسلم معها من التعدي والتجاوز لحد العقوبة، فإذا سكن غضبه، ورجع إلى طبعه، أمر بعقوبته على الحد الذي سنته الشريعة، ونقلته الملة. فإن لم يكن في الشريعة ذكر عقوبة ذنبه، فمن العدل أن يجعل عقوبة ذلك الذنب واسطة بين غليظ الذنوب ولينها، وأن يجعل الحكم عليه فيه، ونفسه طيبة، وذكر القصاص منه على بال.

آداب البطانة مع الملوك

من حق الملك إذا هم بالحركة للقيام، أن تسبقه بطانته وخاصته بذلك، فإن أومأ إليهم ألّا يبرحوا، لا يقعد واحد منهم حتى يتوارى عن أعينهم.

فإذا خرج فمن حقه أن تقع عينه عليهم وهم قيام، فإذا قعد كانوا على حالهم تلك، فإن نظر إليهم ليقعدوا، لم يقعدوا جملةً، بل تقعد الطبقة الأولى أولًا، فإذا قعدت عن آخرها تبعتها الطبقة الثانية، فإذا قعدت عن آخرها تبعتها الطبقة الثالثة.

وأيضًا فإن لكل طبقة رأسًا وذنبًا، فمن الواجب أن يقعد من كل طبقةٍ رأسها، ثم هلم جرًّا على مراتب الطبقة أولًا أولًا.

ومن حق الملك ألّا يدنو منه أحد ـ صغر أو كبر ـ حتى يمس ثوبه ثوبه إلا وهو معروف الأبوين، في مركبٍ حسيبٍ، غير خامل الذكر ولا مجهول.

حديث الملك

من حق الملك إذا حدث بحديث، أن يصرف من حضره فكره وذهنه نحوه، فإن كان يعرف الحديث الذي يحدث به الملك، استمعه استماع من لم يدر في حاسة سمعه قط ولم يعرفه، وأظهر السرور بفائدة الملك والاستبشار بحديثه.

فإن في ذلك أمرين: أحدهما ما يظهر من حسن أدبه، والآخر أنه يعطي الملك حقه بحسن الاستماع. وإن كان لم يعرفه، فالنفس إلى فوائد الملوك والحديث عنهم أَقْرَمُ وأشهى منها إلى فوائد السوقة ومن أشبههم.

وإنما مدار الأمر والغاية التي إليها يُجرى، الفهم والإفهام، والطلب ثم التثبت.

قال عمرو بن العاص: ثلاثة لا أملهن: جليسي ما فهم عني، وثوبي ما سترني، ودابتي ما حملت رحلي.

حديث أنوشروان ونعمتان جليلتان قابلتهما محنة

فيما يحكى عن أنوشروان أنه بينا هو في مسيرٍ له، وكان لا يسايره أحد من الخلق مبتدئًا، وأهل المراتب العالية خلف ظهره على مراتبهم، فإن التفت يمينًا، دنا منه صاحب الحرس، وإن التفت شمالًا، دنا منه الموبذ، فأمره بإحضار من أراد مسايرته.

فالتفت في مسيره هذا يمينًا، فدنا منه صاحب الحرس، فقال: فلان. فأحضره، فقال: حدثني عن أردشير بن بابك حين واقع ملك الخزر، وكان الرجل قد سمع من أنوشروان هذا الحديث مرة،

فاستعجم عليه وأوهمه أنه لا يعرفه. فحدثه أنوشروان بالحديث، فأصغى الرجل إليه بجوارحه كلها، وكان مسيرهما على شاطئ نهر.

وترك الرجل لإقباله على الحديث النظر إلى مواطئ حافر دابته، فزلت إحدى قوائم الدابة، فمالت بالرجل إلى النهر، فوقع في الماء ونفرت دابته، فابتدرها حاشية الملك وغلمانه، فأزالوها عن الرجل، وجذبوه فحملوه على أيديهم حتى أخرجوه، فاغتم لذلك أنوشروان، ونزل عن دابته، وبسط له هناك، فأقام حتى تغدى في موضعه ذلك، ودعا بثياب من خاص كسوته، فألقيت على الرجل، وأكل معه.

وقال له: كيف أغفلت النظر إلى موطئ حافر دابتك؟ قال: أيها الملك! إن الله إذا أنعم على عبدٍ بنعمة، قابلها بمحنة، وعارضها ببلية، وعلى قدر النعم تكون المحن.

وإن الله أنعم علي بنعمتين عظيمتين هما: إقبال الملك علي بوجهه من بين هذا السواد الأعظم، وهذه الفائدة وتدبير هذه الحرب التي حدث فيها عن أردشير، حتى لو رحلت إلى حيث تطلع الشمس أو تغرب، كنت فيه رابحًا.

فلما اجتمعت نعمتان جليلتان في وقت واحد، قابلتهما هذه المحنة، ولولا أساورة الملك وخدمه وحسن جده، كنت بمعرض هلكة. وعلى ذلك، فلو غرقت حتى أذهب عن جديد الأرض، كان قد أبقى لي الملك ذكرًا متلدًا، ما بقي الضياء والظلام.

فسر الملك، وقال: ما ظننتك بهذا المقدار الذي أنت فيه! فحشا فمه جوهرًا ودرًّا رائعًا ثمينًا، واستبطنه حتى غلب على أكثر أمره.

الحجر العائر الذي صك وجه ابن شجرة

يحكى عن يزيد بن شجرة الرهاوي أنه بينا هو يساير معاوية بن أبي سفيان، ومعاوية يحدثه عن يوم خزاعة وبني مخزوم وقريش، وكان هذا قبل الهجرة، وكان يومًا أشرف فيه الفريقان على الهلكة حتى جاءهم أبو سفيان فارتفع ببعيره على رابية، ثم أومأ بِكُمَّيهِ إلى الفريقين، فانصرفوا.

فبينا معاوية يحدث يزيد بن شجرة بهذا الحديث، إذ صك وجه يزيد حجر عائر[11] فأدماه، وجعلت الدماء تسيل من وجهه على ثوبه، وهو ما يمسح وجهه.

فقال له معاوية: لله أنت! ما ترى ما نزل بك؟ قال: وما ذاك، يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا دم وجهك يسيل على ثوبك! قال: أُعْتِقَ ما أَمْلكُ، إن لم يكن حديث أمير المؤمنين ألهاني حتى غمر فكري، وغطى على قلبي، فما شعرت بشيء حتى نبهني أمير المؤمنين.

فقال له معاوية: لقد ظلمك من جعلك في ألفٍ من العطاء، وأخرجك من عطاء أبناء المهاجرين، وكُماة أهل صفين! فأمر له بخمسمئة ألف درهم، وزاده في عطائه ألف درهم، وجعله بين جلده وثوبه.

فلئن كان يزيد بن شجرة خدع معاوية في هذه، فمعاوية ممن لا يخادع ولا يجارى، ولئن كان بلغ من بلادة يزيد بن شجرة وقلة حسه ما وصف به نفسه، ما كان بجدير بخمسمئة ألف في عطائه.

وما أظن ذلك خفي عن معاوية، ولكنه تغافل على معرفةٍ، لما وفاه حق رياسته. ويروى عن معاوية أنه كان يقول: ((السَّرْوُ التغافل))[12].

ما وقع لأبي بكر الهذلي حين حادثه أبو العباس

حكي عن أبي بكر الهذلي أنه بينما هو يسامر أبا العباس، عصفت الريح، فأذرت طسًا[13] من سطح إلى مجلس أبي العباس، فارتاع ومن حضره، ولم يتحرك أبو بكر لذلك، ولم تزل عينه متطلعة لعين أبي العباس.

فقال له: ما أعجب شأنك يا هذلي! لم ترع مما راعنا. قال: يا أمير المؤمنين: {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ} [الأحزاب:4]، وإنما للمرء قلب واحد، فلما غمره السرور بمحادثة أمير المؤمنين، لم يكن فيه لحادث مجال. وإن الله إذا انفرد بكرامة أحد، وأحب أن يبقى له ذكرها، جعل تلك الكرامة على لسان نبيه أو خليفته. وهذه كرامة خصصت بها، مال إليها ذهني، وشغل بها فكري. فلو انقلبت الخضراء على الغبراء ما أحسست بها ولا وجمت لها إلا بما يلزمني في نفسي

لأمير المؤمنين. فقال أبو العباس: لئن بقيت لك، لأرفعن منك ضبعًا لا تطيف به السباع، ولا تنحط عليه العقبان[14].

أقوال في حسن الاستماع

كان عبد الله بن عياش المنتوف يقول: لم يتقرب العامة إلى الملوك بمثل الطاعة، ولا العبيد بمثل الخدمة، ولا البطانة بمثل حسن الاستماع.

وكان أبو زرعة، روح بن زنباع بن روح بن سلامة الجذامي، يقول: إن أردت أن يمكنك الملك من أذنه، فأمكن أذنك من الإصغاء إليه إذا حدث.

وكان أسماء بن خارجة الفزاري يقول: ما غلبني أحد قط غلبة رجلٍ يصغي إلى حديثي.

وكان معاوية يقول: يغلب الملك حتى يركب بشيئين: بالحلم عند سورته، والإصغاء إلى حديثه.

أخلاق الملوك ليست على نظام واحد

من أخلاق الملك إذا قرب إنسانًا أو أنس به حتى يهازله ويضاحكه، ثم دخل عليه بعد، أن يدخل دخول من لم يجر بينهما أنس قط، وأن يظهر من الإجلال له والتعظيم والاستخذاء[15] أكثر مما كان عليه قبل.

فإن أخلاق الملوك ليست على نظام، ومن أخلاقهم ألّا تكون أخلاقهم معروفة، فيتمثل عليها، ويعاملون بها.

ألا ترى أن الملك قد يغضب على الرجل من حماته، والرجل من حماته وبطانته، إما لجنايةٍ في صلب مالٍ، أو لخيانة حرمة الملك، فيؤخر عقوبته دهرًا طويلًا، ثم لا يظهر له ما يوحشه حتى

يتقي ذلك في اللحظة والكلمة والإشارة وما أشبه ذلك.

وليست هذه أخلاق سائر الناس؛ إذ كنا نعلم أن طبائع الناس الانتصار في أول أوقات الجنايات، وعند أول بوادر الغضب، فأما الملوك وأبناؤهم، فليست تقاس أخلاقهم، ولا يعاير عليها.

مراعاة حرمة الملك

من حق الملك ألّا يرفع أحد من خاصته وبطانته رأسه إلى حرمةٍ له، صغرت أم كبرت. فكم من فيلٍ قد وطئ هامة عظيم وبطنه حتى بدت أمعاؤه، وكم من شريفٍ وعزيز قومٍ قد مزقته السباع وتمشَّشَتْه[16]، وكم من جارية كانت كريمة على قومها عزيزة في ناديها قد أكلتها حيتان البحر وطير الماء، وكم من جمجمة كانت تصان وتعل بالمسك والبان قد ألقيت بالعراء، وغيبت جثتها في الثرى بسبب الحرم والنساء، والخدم والأولياء!

فعلى الحكيم المحب لبقاء هذا النسيم الدقيق، وهذا الماء الرقيق، أن يطلب دوامها لنفسه بكلّ حيلة يجد إليها سبيلًا، ويدفع مقارفتها لكل شيء يقع فيه التأويل بين أمرين من سلامة تنجي أو عطبٍ يتلف. ولا يتكل على خيانة خفيت، أو فجرةٍ حظي بها أحد من أهل السفه والبطالة؛ فإن تلك لا تسمى سلامة، بل إنما هي حسرة وندامة، يوم القيامة. وكم من فعلةٍ قد ظهر عليها بعد مرور الأيام، وطول الأزمنة بها، فردت من كان قد أحسن بها الظن حتى تركته كأمس الذاهب، كأن لم يكن في العالم!

تعظيم الملك بإغضاء البصر
وخفض الصوت بحضرته

من حق الملك إذا أنس بإنسانٍ حتى يضاحكه ويهازله ويفضي إليه بسره ويخصه دون أهله، ثم دخل على الملك داخل أو زاره زائر، ألّا يرفع إليه طرفه، إعظامًا وإكرامًا، وتبجيلًا وتوقيرًا، ولا يعجب لعجبه. وليكن غرضه الإطراق والصمت وقلة الحركة.

ومن حق الملك ألّا يرفع أحد صوته بحضرته؛ لأن من تعظيم الملك وتبجيله، خفض الأصوات بحضرته، إذ كان ذلك أكثر في بهائه وعزه وسلطانه.

وبهذا أدب الله أصحاب رسوله ﷺ، فقال عز من قائل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} [الحجرات:2].

فأخبر أن من رفع صوته فوق صوت النبي فقد آذاه، ومن آذاه فقد آذى الله، ومن آذى الله فقد حبط عمله. وكان قوم من سفهاء بني تميم أتوا النبي ﷺ، فقالوا: يا محمد! أخرج إلينا نكلمك. فغم ذلك رسول الله ﷺ، وساءه ما ظهر من سوء أدبهم، فأنزل الله عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [الحجرات:4]. ثم أثنى على من غض صوته بحضرة رسوله، فقال جل اسمه: {إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى} [الحجرات:3].

فمن تعظيم الملك وتبجيله خفض الأصوات بحضرته، وإذا قام عن مجلسه، حتى لا يدخل الملك وهن ولا خلل ولا تقصير، في صغير أمرٍ ولا جليله.

في غياب الملك

كانت ملوك الأعاجم تقول: إن حرمة مجلس الملك إذا غاب كحرمته إذا حضر. وكان لها عيون على مجالسها، إذا غابت عنها.

فمن حضرها، فكان في كلامه وإشارته وقلة حركته وحسن ألفاظه وأدبه على مثل ما يكون إذا حضر الملك، سمي ذا وجه.

ومن خالف أخلاقه وشيمه، وظهر منه خلاف ما يظهره بحضرة الملك، سمي ذا وجهين، وكان عند الملك منقوصًا متصنعًا.

مكافآت الملوك

من أخلاق الملك أن يخلع على من أدخل عليه سرورًا، إما في خاصة نفسه وإما في توكيد ملكه.

فإن كان السرور لنفسه في نفسه، فمن حقه على الملك أن يخلع عليه خلعةً في قرار داره، وبحضرة بطانته وخاصته. وإن كان في توكيد ملكه، فمن حقه أن يخلع عليه بحضرة العامة، لينشر له بذلك الذكر ويحسن به الأحدوثة، وتصلح عليه النيات، ويستدعي بذلك الرغبة إلى توكيد الملك وتسديد أركانه.

وليس من العدل أن يفرد المحسن بخلعةٍ فقط، إلا أن تكون تلك الخلعة على شربٍ أو لهوٍ، فأما إذا كانت لأحد المعنيين اللذين قدمنا ذكرهما، فمن العدل أن يكون معها جائزة وصلة وترتيب، أو ولاية أو إقطاع أو إجراء أرزاق أو فك أسير أو حمل حمالاتٍ أو قضاء دين أو إحسان، كائنًا ما كان، مضافًا إليها، وموصولًا بها.

باب في صفة ندماء الملك

ينبغي أن يكون نديم الملك معتدل الطبيعة، معتدل الأخلاط، سليم الجوارح والأخلاق، لا الصفراء تقلقه وتكثر حركته، ولا الرطوبة والبلغم يقهره ويكثر بوله وبزقه وتثاؤبه ويطيل نومه، ولا السوداء تضجره وتطيل فكره وتكثر أمانيه وتفسد مزاجه.

ومن حق الملك إذا زامله بعض بطانته، أن يكون عارفًا بمنازل الطريق، وقطع المسافة، دليلًا بهدايته وأعلامه ومياهه، قليل التثاؤب والنعاس، قليل السعال والعطاس، معتدل المزاج، صحيح البنية، طيب المفاكهة والمحادثة، قصير المياومة والملايلة، عالمًا بأيام الناس ومكارم أخلاقهم، عالمًا بالنادر من الشعر والسائر من المثل، متطرفًا من كل فن، آخذًا من الخير والشر بنصيب.

فإن بالملك أعظم الحاجة إلى من كانت هذه صفاته، وبالحرى إذا أصاب هذا، ألّا يفارقه إلا عن أمرٍ تنقطع به النقمة.

عدة الملك في سفره أو نزهته

من حق الملك إذا خرج لسفرٍ أو نزهةٍ، ألّا يفارقه: خلع للكساء، وأموال للصلات، وسياط للأدب، وقيود للعصاة، وسلاح للأعداء، وحماة يكونون من ورائه وبين يديه، ومؤنس يفضي إليه بسره، وعالم يسأله عن حوادث أمره، وسنة شريعته، وملهٍ يقصر ليله، ويكثر فوائده.

وعلى هذا كانت ملوك الأعاجم، أولها وآخرها، وأيضًا فإن ملوك العرب لم تزل تمتثل هذا وتفعله.

خلال الندماء وملاعبة الملوك

لندماء الملك وبطانته خِلال يساوون فيها الملك ضرورةً، ليس فيها نقص على الملك، ولا ضعة في الملك. منها: اللعب بالكرة، وطلب الصيد، والرمي في الأغراض، واللعب بالشطرنج.

ومن الحق على الملك ألّا يمنع ملاعبه ما يجب له من طلب النصفة في هذه الأقسام التي عددنا، ومن حق الملاعب له المشاحة والمطالبة والمساواة والممانعة، وترك الإغضاء والأخذ من الحق بأقصى حدوده. غير أن ذلك لا يكون معه بذاء ولا كلام رفثٍ ولا معارضة بما يزيل حق الملك، ولا صياح يعلو كلامه، ولا نخير ولا قذف ولا ماهو خارج عن ميزان العدل.

ومن حق الرجل على الملك إذا ضرب معه بالكرة، أن يتقدم بدابته على دابة الملك، وصولجانه على صولجان الملك، وأن يعمل جهده في ألّا يبخس حظه، ولا يفتر في مسابقةٍ ولا مراكضةٍ ولا التفاف كرةٍ ولا سبقٍ إلى حدٍ ونهاية. وكذلك القول في الرماية، وطلب الصيد، ولعب الشطرنج.

آداب الندماء عند نعاس الملك

من أخلاق الملك إذا غلبته عيناه، أن ينهض من حضره من صغيرٍ أو كبير، بحركةٍ لينةٍ خفيفة، حتى يتوارى عن قرار مجلسه، ويكون بحيث يقرب منه إذا انتبه.

ولا يقولن إنسان في نفسه: لعل الملك إن هب من سنته لا يسأل عني، أو لعله أن يمتد به النوم أو يعرض له شغل. فإن هذا من أكبر الخطأ، وقد قتل بعض الملوك رجلًا في هذه الصفة.

وليس من الحزم أن يجعل الحكيم للملك على نفسه طريقًا، وهو إن سلم من عذل الملك ولائمته لكرم الملك وشيمته، قدح ذلك في نفس الملك، واضطغن عليه. وبالحرى ألّا يسلم من عذلٍ وتأنيب.

إمامة الملك للصلاة

من حق الملك إذا حضرت الصلاة، فالملك أولى بالإمامة، لخصالٍ: منها أنه الإمام، والرعية مأمومة؛ ومنها أنه المولى وهم العبيد؛ ومنها أنه أولى بالصلاة في قرار داره وموطئ بساطة، ولو حضر مجلسه أزهد الخلق وأعلمهم.

فإذا قام للصلاة، فمن حقه أن يكون بينه وبين من يصلي خلفه عشرة أذرع، وألّا يتقدمه أحد بتكبير ولا بركوعٍ ولا سجودٍ ولا قيامٍ. وهذا، وإن كان يجب لكل من أم قومًا من صغير أو كبير أو شريف أو وضيع، فهو للملك أوجب. فإذا سلم الملك، فمن حقه أن يقوم كل من صلى خلفه قائمًا، فإنهم لا يدرون أيريد تنفلًا أو دخولًا أو قعودًا في مجلسه. فإن قام لنافلةٍ، فليس من حقه أن يتنفلوا؛ لأنهم لا يدرون لعله أن يسبقهم أو يقطع صلاته لحدثٍ، فيكون يحتاج إلى أن يسبقهم، وهم قيام يصلون بإزائه، وهو قاعد. ولكن من حقه أن يكونوا بحالهم حتى يعلموا ما الذي يفعل، فإن قعد انحرفوا إلى حيث لا يراهم، فصلوا نوافلهم، وإن دخل في الصلاة صلوا على مكاناتهم.

آداب مسايرة الملك

من حق الملك ألّا يبتدئه أحد بمسايرة، وإن طلب ذلك منه من يستحق المسايرة، فالذي يجزئه من ذلك أن يقف بحيث يراه ويتصدى له؛ فإن أومأ إليه سايره، وإن أمسك عن الإيماء، علم أن إمساكه هو ترك الإذن له في مسايرته. ومن حقه إذا سايره ألّا يمس ثوبه ثوب الملك، ولا يدني دابته من دابته، ويتوخى أن يكون رأس دابته بإزاء سرج الملك، غير أنه لا يكلفه أن يلتفت إليه. ولا ينبغي له أن يبتدئه بكلام، وإن كان لا يثق بلين عنان دابته حتى يصرفه كيف شاء ومتى شاء، فالرأي ألّا يسايره؛ فإن في مسايرته وصمةً عليه وعلى الملك: أما عليه، فإنه يحتاج إلى حركة متواترة يتعب بها نفسه ودابته، ويخرج بها عن حد أهل الأدب والمروءة والشرف، ولعله في خلال ذلك أيضًا ألّا يبلغ ما يريد. وأما على الملك، فإنه وهن في المملكة؛ لأن الملك إن طلب الصبر عليه وعلى سير دابته، كان إنما يسير عند ذلك بسيره، وليس في آيين المملكة أن يسير الأعظم بسير من هو دونه.

مسايرة الموبذ لقباذ

فيما يحكى عن ملوك الأعاجم أن قباذ بينا هو يسير والموبذ يسايره، إذ راثت دابة الموبذ، وفطن لذلك قباذ.

فاغتم الموبذ بذلك، فقال له في كلام بينهما: ما أول ما يستدل به على سخف الرجل، أيها الموبذ؟ فقال: أن يعلف دابته في الليلة التي يركب في صبيحتها الملك.

فضحك قباذ حتى افتر عن نواجذه، وقال: لله أنت! ما أحسن ما ضمنت كلامك بفعل دابتك! وبحق ما قدمك الملوك، وجعلوا أزمة أحكامهم في يدك.

ووقف، ثم دعا بدابة من خاص مراكبه، فقال له: تحول عن ظهر هذا الجاني عليك إلى ظهر هذا الطائع لك.

مسايرة شرحبيل لمعاوية

يحكى عن معاوية بن أبي سفيان، بينا هو يسير وشرحبيل بن السمط يسايره، إذ راثت دابة شرحبيل؛ فقال معاوية: يا أبا يزيد! إنه يقال: إن الهامة إذا عظمت، دلت على وفور الدماغ، وصحة العقل. قال: نعم، يا أمير المؤمنين، إلا هامتي فإنها عظيمة، وعقلي ضعيف ناقص.

فتبسم معاوية، وقال: كيف ذلك؟ ولله أنت! قال: لإطعامي هذا النائل أمه البارحة مكوكي شعير. فضحك معاوية، وقال: أفحشت، وما كنت فاحشًا! وحمله على دابة من مراكبه.

فليتنكب من يساير الملوك ما يقذي أعينهم بكل جهده؛ فإن لمسايرتهم شروطًا يجب على من طلبها أن يستعملها ويتحفظ فيها، وقلما حظي أحد بمسايرة ملك حتى يكون قبلها مقدمات يجب بها الحُظْوة. فأما نفس المسايرة للملك المتصلة، فإن الأعاجم كلها كانت تتطير منها وتكرهها، وأيضًا فإن الملك لم يكن يثابر على مسايرة أحد من بطانته بعينه، لما كان يعلم من طيرتهم من ذلك، وكراهتهم له.

ما قصر في الاجتهاد ولكن حرم حظ التوفيق

يقال: إن سعيد بن سلم بينا هو يساير موسى أمير المؤمنين، وعبد الله بن مالك الخزاعي أمامه، والحربة في يده، فكانت الريح تسفي التراب الذي تثيره دابة عبد الله في وجه موسى، وعبد الله لا يشعر بذلك، وموسى يحيد عن سنن التراب، وعبد الله في خلال ذلك يلحظ موسى وموضعه، فيطلب أن يحاذيه، فإذا حاذاه، ناله من ذلك التراب ما يؤذيه.

حتى إذا كثر ذلك من عبدالله، ونال موسى أذى ذلك التراب، قال لسعيدٍ: أما ترى ما نلقى من هذا الخائن في مسيرنا هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين! والله ما قصر في الاجتهاد، ولكنه حرم حظ التوفيق.

عدم تسمية أو تكنيته الملك

من حق الملك ألّا يسمى ولا يكنى في جدٍّ أو هزل، ولا أنسٍ ولا غيره. ولولا أن القدماء من الشعراء كنت الملوك وسمتهم في أشعارها، وأجازت ذلك واصطلحت عليه، ما كان جزاء من كنى ملكًا أو خليفةً إلا العقوبة.

على أن ملوك آل ساسان لم يكنها أحد من رعاياها قط، ولا سماها في شعرٍ ولا خطبةٍ ولا تقريظٍ؛ وإنما حدث هذا في ملوك الحيرة.

ولولا أن الاصطلاح منعنا إيجاب المنع من ذلك، كان أول ما يجب. ولا أدري لم فعل القدماء ذلك، كما أني لا أدري لم أجازته ملوكها، ورضيت به، إذ كانت صفة الملوك ترتفع عن كل شيء، وترقى عنه.

وكانت الجفاة من العرب بسوء أدبها وغلظ تركيبها، إذا أتوا النبي ﷺ خاطبوه ودعوه باسمه وكنيته. فأما أصحابه فكانت مخاطبتهم إياه: يا رسول الله! ويا نبي الله! وهكذا يجب للملوك أن يقال في مخاطبتهم: يا خليفة الله! ويا أمين الله! ويا أمير المؤمنين!

عند تشابه الأسماء

من حق الملك، إذا دخل عليه رجل، وكان اسم ذلك الرجل الداخل أحد صفات الملك، فسأله الملك عن اسمه، أن يكني عنه، ويجيب باسم أبيه.

كما فعل سعيد بن مرة الكندي، حين أتى معاوية، فقال له: أنت سعيد؟ فقال: أمير المؤمنين السعيد، وأنا ابن مرة!

وكما قال السيد بن أنس الأزدي، وقد سأله المأمون عن اسمه، فقال: أنت السيد؟ قال: أمير المؤمنين السيد، وأنا ابن أنس!

وهكذا جاءنا الخبر عن العباس بن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ، وصنو أبيه. قيل له: أنت أكبر أم رسول الله؟ فقال: هو أكبر مني، وولدت أنا قبله. ألا تراه ـ رحمه الله ـ كيف تخلص إلى أحسن الأحوال في الأدب، فاستعمله؟

وعلى هذا المثال يجب أن تكون مخاطبة الملوك؛ إذ كانت صيغتهم غير صيغ العامة، كما قال أردشير بن بابك في عهده إلى الملوك.

ما يتفرد به الملك في عاصمته

من حق الملك أن يتفرد في قرار داره بثلاثة أشياء، فلا يطمع طامع في أن يشركه فيها، فمنها: الحجامة، والفصد، وشرب الدواء. فليس لأحدٍ من الخاصة والعامة ممن في قصبة دار المملكة أن يشركه في ذلك.

وكانت ملوك الأعاجم تمنع من هذا وتعاقب عليه، وتقول: إذا أراق الملك دمه، فليس لأحد أن يريق دمه في ذلك اليوم حتى يساوي الملك في فعله، بل على الخاصة والعامة الفحص عن أمر الملك، والتشاغل بطلب سلامته، وظهور عافيته، وكيف وجد عاقبة ما يُعالَجُ به.

ومن قصد إلى أن يشرك الملك في شيء، يجد عنه مندوحةً ومنه بدًّا، بالمهل المبسوطة والأيام الممدودة، فهو عاصٍ مفارق للشريعة. ويقال: إن كسرى أنوشروان كان أكثر ما يحتجم في يوم السبت، وكان المنادي إذا أصبح في كل يوم سبت، نادى: يا أهل الطاعة! ليكن منكم ترك الحجامة في هذا اليوم على ذكر! ويا حجامون، اجعلوا هذا اليوم لنسائكم وغسل ثيابكم. وهكذا كان يفعل في يوم فصد العرق وأخذ الدواء.

دعاء الملك وتعزيته

من حق الملك إذا عطس ألّا يشمت، وإذا دعا لم يؤمن على دعائه.

وكانت ملوك الأعاجم تقول: حقيق على الملك الصالح أن يدعو للرعية الصالحة، وليس بحقيق للرعية الصالحة أن تدعو للملك الصالح؛ لأن أقرب الدعاء إلى الله دعاء الملك الصالح.

ومن حق الملك ألّا يعزيه أحد من حاشيته وحامّته وأهل بيته وقرابته، وإنما جعلت التعزية لمن غاب عن المصيبة، أو لمن قارب الملك في العز والسلطان، والبهاء والقدرة، فأما من دون هؤلاء فينهون عن التعزية أشد النهي.

وفيما يذكر عن عبد الملك بن مروان أنه مات بعض بنيه وهو صغير، فجاءه الوليد فعزاه، فقال: يا بني! مصيبتي فيك أقدح في بدني من مصيبتي بأخيك! ومتى رأيت ابنًا عزى أباه؟ قال :يا أمير المؤمنين! أمي أمرتني بذلك! قال: ذاك يا بني أهون علي! وهذا لعمري من مشورة النساء.

غضب الملك ورضاه

من أخلاق الملك سرعة الغضب، وليس من أخلاقه سرعة الرضا.

فأما سرعة الغضب فإنما تأتي الملك من جهة دوام الطاعة، وذلك لأنه لا يدور في سمعه ما يكره في طول عمره. فإذا ألفت النفس هذا العز الدائم، صار أحد صفاتها. فمتى قرع حس النفس ما لا تعرفه في خلقها، نفرت منه نفورًا سريعًا، فظهر الغضب أنفةً وحميةً.

وأما رضا الملك فبطيء جدًّا؛ لأنه شيء تمانعه النفس أن يفعله، وتدفعه عن نفسها.

أخلاق الملوك وصنيعهم

حين غضب الرشيد على عبد الله بن مالك الخزاعي: أمر أهله وحشمه وجميع قرابته أن يجتنبوا كلامه وخدمته ومعاطاته حتى أثر ذلك في نفسه وبدنه، فتحاماه أقرب الناس منه من ولدٍ وأهل، فلم يدن منه أحد.

فجاءه محمد بن إبراهيم الهاشمي في جوف الليل، فقال له: يا أبا العباس! إن لك عندي يدًا لا أنساها، ومعروفًا ما أكفره، وقد علمت ما تقدم به أمير المؤمنين في أمرك، وها أنا ذا بين يديك،

ونصب عينيك، فمرني بأمرك، فوالله لأجعلن نفسي وقاية نفسك، وأسوقها في كل ما نكأها أو جرحها.

فقال له عبد الله خيرًا، وأثنى عليه، وأخبره بعذره في موجدة أمير المؤمنين عليه، فوعده محمد أن يكلم أمير المؤمنين، ويخبره باعتذاره. فلما أصبح محمد، وافاه رسول أمير المؤمنين، فركب. فلما دخل عليه، قال: من أتيت في هذه الليلة؟ قال: عبدك، يا أمير المؤمنين، عبد الله بن مالك، وهو يحلف بطلاق نسائه، وعتق مماليكه، وصدقة ماله مع عشرين نذرًا يهديها إلى بيت الله الحرام حافيًا راجلًا، والبراءة من ولاية أمير المؤمنين إن كان ما بلغ أمير المؤمنين سمعه الله من عبد الله بن مالك، أو اطلع عليه أو هم به، أو أضمره أو أظهره.

قال: فأطرق الرشيد مليًّا مفكرًا؛ ثم رفع رأسه فقال: أحسبه صادقًا، يا محمد؛ فمره بالرواح إلى الباب. قال: وأكون معه، يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم.

فانصرف محمد إلى عبد الله، فبشره بجميل أمره، وأمره بالركوب رواحًا، فدخلا جميعًا، فلما بصر عبد الله بالرشيد، انحرف نحو القبلة، فخر ساجدًا، ثم رفع رأسه، فاستدناه الرشيد، فدنا وعيناه تهملان. فأكب عليه، فقبل رجله وبساطه وموطئ قدميه، ثم طلب أن يأذن له في الاعتذار. فقال: ما بك حاجة إلى أن تعتذر؛ إذ عرفت عذرك. قال: فكان عبد الله بعدُ إذا دخل على الرشيد، رأى فيه بعض الإعراض والانقباض.

فشكا ذلك إلى محمد بن إبراهيم، فقال محمد: يا أمير المؤمنين! إن عبد الله يشكو أثرًا باقيًا من تلك النبوة التي كانت من أمير المؤمنين، ويسأل الزيادة في بسطه له. فقال الرشيد: يا محمد! إنا معشر الملوك، إذا غضبنا على أحدٍ من بطانتنا، ثم رضينا عنه بعد ذلك، بقي لتلك الغضبة أثر لا يخرجه ليل ولا نهار.

أسرار الملك

من حق الملك أن يكتم أسراره عن الأب والأم والأخ والزوجة والصديق؛ فإن الملك يحتمل كل منقوص ومأنوف[17]، ولا يحتمل ثلاثةً: صفة أحدهم أن يطعن في ملكه، وصفة الآخر أن يذيع

أسراره، وصفة الآخر أن يخونه في حرمه.

فأما من وراء ذلك، فمن أخلاق الملوك أن تلبس خاصتها ومن قرب منها على ما فيهم، وأن تستمع منهم إذا سلموا من هذه الصفات الثلاث.

وكان كسرى أبرويز يقول: ((يجب على الملك السعيد أن يجعل همه كله في امتحان أهل هذه الصفات، إذ كانت أركان الملك ودعائمه))، فكانت محنته في إذاعة السر عجيبة. وللقائل أن يقول فيها: إنها خارجة من باب العدل، داخلة في باب الظلم والجور، وللآخر أن يقول: إنها محن الحكماء من الملوك.

وكان إذا عرف من رجلين من بطانته وخاصته التحاب والألفة والاتفاق في كل شيء، خلا بأحدهما فأفضى إليه بسر في الآخر، وأعلمه أنه عازم على قتله، وأمره بكتمان ذلك عن نفسه، فضلًا عن غيره، وتقدم إليه في ذلك بوعيده. ثم جعل محنته في إذاعة سره ملاحظة صديقه في دخوله عليه وخروجه من عنده، وفي إسفار وجهه ولقائه للملك.

فإن وجد آخر أمره كأوله في أحواله، علم أن الآخر لم يفض إليه بسره ولم يظهره عليه، فقربه واجتباه، ورفع مرتبته وحباه، ثم خلا به، فقال: إني كنت أردت قتل فلانٍ لشيء بلغني عنه، فبحثت في أمره، فوجدته باطلًا.

وإن رأى من صاحبه نفور نفسٍ، وازورار جانب، وإعراض وجهٍ، علم أنه قد أذاع سره، فأقصاه واطرحه وجفاه، وأخبر صاحبه أنه أراد محنته بما أودعه من سره.

فإن كان هذا من أهل المراتب، وضع مرتبته، وإن كان من الندماء، أمر أن يحجب عنه، وإن كان من أصحاب الأعمال، أمر ألّا يستعان به، وإن كان من سدنة بيوت النيران، أمر بعزله وإسقاط أرزاقه.

ويقول: من لم يصلح لملكه، لا يصلح لنفسه، ومن لم يصلح لنفسه، فلا خير عنده. ويقول: إن القلب أعدل على القلب شهادةً من اللسان، وقل شيء يكون في القلب إلا ظهر في العينين؛ إذ كانت الأعضاء مشتركةً يتعلق بعضها ببعض.

حفظ حرم الملك

أما محنة أبرويز في الحرم، فكان إذا خف الرجل على قلبه، وقرب من نفسه، وكان عالمًا يظهر التأله، وكان عنده ممن يصلح للأمانة في الدماء والفروج والأموال على ظاهره، أحب أن يمتحنه بمحنةٍ باطنة فيأمر به أن يحول إلى قصره، ويفرغ له بعض الحجر التي تقرب منه، ولا يحول إليها امرأةً ولا جاريةً ولا حرمةً.

ويقول له: إني أحب الأنس بك في ليلي ونهاري، ومتى كان معك بعض حرمك، قطعك عني، وقطعني عنك، فاجعل منصرفك إلى منزل نسائك في كل خمس ليالٍ ليلةً. فإذا تحول الرجل، وخلا به، وآنسه، وكان آخر من ينصرف من عنده، فيتركه على هذه الحال أشهرًا.

فامتحن كسرى أبرويز رجلًا من خاصته بهذه المحنة في الحرم، ثم دس إليه جاريةً من خواص جواريه، ووجه معها إليه بألطافٍ وهدايا، وأمرها ألّا تقعد عنده في أول ما تأتيه. فلما أتته بألطاف الملك قامت، فلم تلبث أن انصرفت. حتى إذا كانت المرة الثانية، أمرها أن تقعد هنيهةً، وأن تبدي بعض محاسنها حتى يتأملها، ففعلت، ولاحظها الرجل وتأملها، ثم انصرفت.

فلما كانت المرة الثالثة، أمرها أن تقعد عنده، وتطيل القعود وتحادثه، وإن أرادها على الزيادة من المحادثة أجابته، ففعلت، وجعل الرجل يحد النظر إليها، ويسر بحديثها. ومن شأن النفس أن تطلب بعد ذلك الغرض من هذه المطايبة، فلما أبدى ما عنده، قالت: إني أخاف أن يعثر علينا، ولكن دعني أدبر في هذا ما يتم به أمرنا. ثم انصرفت.

فأخبرت الملك بكل ما دار بينهما، فوجه أخرى من خاص جواريه وثقاتهن بألطافه وهداياه، فلما جاءته، قال لها: ما فعلت فلانة؟ قالت: اعتلت. فاربد لون الرجل، ثم لم تطل القعود عنده، كما فعلت الأولى في المرة الأولى، ثم عاودته بعد ذلك، فقعدت أكثر من المقدار الأول، وأبدت بعض

محاسنها، حتى تأملها. وعاودته في المرة الثالثة، فأطالت عنده القعود والمضاحكة والمهازلة، فدعاها إلى ما في تركيب النفس من الشهوة.

فقالت: إنا من الملك على خطًا يسيرة، ومعه في دار واحدة، ولكن الملك يمضي بعد ثلاثٍ إلى بستانه الذي بموضع كذا، فيقيم هناك، فإن أرادك على الذهاب معه، فأظهر أنك عليل وتمارض، فإن خيرك بين الانصراف إلى دور نسائك أو المقام ههنا إلى رجوعه، فاختر المقام، وأخبره أن الحركة تصعب عليك. فإذا أجابك إلى ذلك، جئت في أول الليل، ولبثت عندك إلى آخره.

فسكن الرقيع إلى هذه الأنسة، وانصرفت الجارية إلى الملك، فأخبرته بكل ما دار بينها وبينه. فلما كان الوقت الذي وعدته أن يخرج الملك فيه، دعاه الملك، فقال للرسول: أخبره أني عليل. فلما جاءه الرسول وأخبره، تبسم أبرويز، وقال: هذا أول الشر. فوجه إليه بمحفةٍ، فحمل فيها حتى أتاه، وهو معصب الرأس. فلما بصر به من بعيد، قال: والعصابة الشر الثاني. وتبسم. فلما دنا من الملك سجد، فقال له أبرويز: متى حدثت بك هذه العلة؟ قال: في هذه الليلة. قال: فأي الأمرين أحب إليك: الانصراف إلى منزلك ونسائك ليمرضنك، أو المقام ههنا إلى وقت رجوعي؟ قال: ههنا، أيها الملك، أرفق لي، لقلة الحركة. فتبسم أبرويز، وقال: ما صدقت! حركتك ههنا إن خلفتك، أكثر من حركتك في منزلك.

ثم أمر أن تخرج له عصا الزناة التي كان يوسم بها من زنى، فأيقن الرجل بالشر. وأمر أن يكتب ما كان من أمره حرفًا حرفًا، فيقرأ على الناس إذا حضروا، وأن ينفى إلى أقصى حد المملكة، ويُجعل العصا في رأس رمحٍ تكون معه حيث كان، ليحذر منه من لا يعرفه.

تغاضي الملك عن الصغائر

من أخلاق الملك التغافل عما لا يقدح في الملك، ولا يجرح المال، ولا يضع من العز، ويزيد في الأبهة. وعلى ذلك كانت شيم ملوك آل ساسان.

وفيما يحكى عن بهرام جور أنه خرج يومًا لطلب الصيد، فعار[18] به فرسه حتى وقع إلى راعٍ تحت شجرة، وهو حاقن. فقال للراعي: احفظ علي عنان دابتي، حتى أبول. فأخذ بركابه حتى نزل، وأمسك عنان الفرس، وكان لجامه ملبسًا ذهبًا، فوجد الراعي غفلةً من بهرام، فأخرج من خفه سكينًا، فقطع بعض أطراف اللجام. فرفع بهرام رأسه، فنظر إليه، فاستحيا، ورمى بطرفه إلى الأرض، وأطال الاستبراء ليأخذ الراعي حاجته من اللجام. وجعل الراعي يفرح بإبطائه عنه، حتى إذا ظن أنه قد أخذ حاجته من اللجام، قام، فقال: يا راعي، قد إلي فرسي، فإنه قد دخل في عيني مما في هذه الريح، فما أقدر على فتحهما. وغمض عينيه لئلا يوهمه أنه يتفقد حلية اللجام. فقرب الراعي فرسه، فركبه. فلما ولى، قال له الراعي: أيها العظيم، كيف آخذ إلى موضع كذا وكذا؟ لموضع بعيد. قال بهرام: وما سؤالك عن هذا الموضع؟ قال: هناك منزلي، وما وطئت هذه الناحية قط غير يومي هذا، ولا أراني أعود إليه ثانية. فضحك بهرام، وفطن لما أراد، فقال: أنا رجل مسافر، وأنا أحق بألّا أعود إلى ههنا أبدًا. ثم مضى، فلما نزل عن فرسه، قال لصاحب دوابه ومراكبه: إن معاليق اللجام قد وهبتها لسائلٍ مر بي، فلا تتهمن بها أحدًا.

وهكذا يحكى عن أنوشروان أنه قعد ذات يومٍ في نيروز أو مهرجان، ووضعت الموائد، ودخل وجوه الناس الإيوان على طبقاتهم ومراتبهم، وقام الموكلون بالموائد على رؤوس الناس، وكسرى بحيث يراهم. فلما فرغ الناس من الطعام، جاؤوا بالشراب في آنية الفضة، وجامات الذهب، فشرب الأساورة وأهل الطبقة العالية في آنية الذهب.

فلما انصرف الناس، ورفعت الموائد، أخذ بعض القوم جام ذهبٍ، فأخفاه في قبائه، وأنوشروان يلحظه، فصرف وجهه عنه. وافتقد صاحب الشراب الجام، فصاح: لا يخرجن أحد من الدار حتى يفتش. فقال كسرى: لا تتعرض لأحد! وأذن للناس فانصرفوا. فقال صاحب الشراب: أيها الملك! إنا فقدنا بعض آنية الذهب. فقال الملك: صدقت، قد أخذها من لا يردها عليك، وقد رآه من لا ينم عليه. فانصرف الرجل بالجام.

وهكذا فعل معاوية بن أبي سفيان في يوم عيدٍ، وقد قعد للناس، ووضعت الموائد وبدر الدراهم والدنانير للجوائز والصلات، فجاء رجل من الجماعة، والناس يأكلون، فقعد على كيس فيه دنانير. فصاح به الخدم: تنح! فليس هذا بموضع لك.

فسمع معاوية، فقال: دعوا الرجل يقعد حيث انتهى به المجلس. فأخذ كيسًا، فوضعه بين بطنه وحجزة سراويله، وقام، فلم يجسر أحد أن يدنو منه. فقال الخادم: أصلح الله أمير المؤمنين! إنه قد نقص من المال كيس دنانير. فقال: أنا صاحبه، وهو محسوب لك.

وهذه أخلاق الملوك معروفة في سيرهم وكتبهم، وإنما يتفقد مثل هذا من هو دون الملك، فأما الملك فيجل عن كل شيءٍ، ويصغر عنده كل شيء.

إكرام الأوفياء

من أخلاق الملك إكرام أهل الوفاء وبرهم والاستنامة إليهم والثقة بهم والتقدمة لهم على الخاص والعام، والحاضر والبادي. وذلك أنه لا يوجد في الإنسان فضيلة أكبر ولا أعظم قدرًا، ولا أنبل فعلًا من الوفاء. وليس الوفاء شكر اللسان فقط؛ لأن شكر اللسان ليس على أحدٍ منه مؤونة. واسم الوفاء مشتمل على خلال:

فمنها أن يذكر الرجل من أنعم عليه، بحضرة الملك فمن دونه، فإن كان الملك فيه سيّئ الرأي، فليس من الوفاء أن يعينه على سوء رأيه، فإن خاف سوط الملك وسيفه، فأحسن صفاته أن يمسك عن ذكره بخيرٍ أو شرٍ. ومنها المواساة للصاحب في المال، حتى يقاسمه الدرهم بالدرهم، والنعل بالنعل، والثوب بالثوب. ومنها الحفظ له في خلفه وعياله، ما كان في الدنيا، حتى يجعلهم أسوةً بعياله في الجدب والخصب. ومنها الشكر له باللسان والجوارح.

وكانت ملوك الأعاجم كلها، أولها وآخرها، لا تمنع أحدًا من خاصتها وعامتها شكر من أنعم عليها أو على أحدٍ منها، وتقريظه وذكر نعمه وإحسانه، وإن كانت الشريعة قد قتلته، والملك قد سخط عليه. بل كانوا يعرفون فضيلة من ظهر ذلك منه، ويأمرون بصلته وتعهده.

ويقال: إن قباذ أمر بقتل رجلٍ كان من الطاعنين على المملكة، فقتل. فوقف على رأسه رجل كان من جيرانه، فقال: رحمك الله! إن كنت ـ ما علمت ـ لتكرم الجار، وتصبر على أذاه، وتواسي أهل الحاجة، وتقوم بالنائبة، والعجب كيف وجد الشيطان فيك مساغًا حتى حملك على عصيان

ملكك، فخرجت من طاعته المفروضة إلى معصيته! وقديمًا ما تمكن ممن هو أشد منك قوةً وأثبت عزمًا.

فأخذ الرجل صاحب الشرطة فحبسه، وانتهى كلامه إلى قباذ، فوقع قباذ: يحسن إلى هذا الذي شكر إحسانًا فعل به، وترفع مرتبته، ويزاد في عطائه.

أدب سماع الملك ومحادثته

من حق الملك إذا حضره سماره أو محدثوه، ألّا يحرك أحد منهم شفتيه مبتدئًا، ولا يقطع حديثه بالاعتراض فيه، وإن كان نادرًا شهيًّا، وأن يكون غرضهم حسن الاستماع، وإشغال الجوارح بحديثه.

فإذا فرغ من الحديث فنظر إلى بعضهم، فقد أذن له أن يحدثه بنظير ذلك الجنس من الحديث، وليس له أن يأخذ في غير جنس حديثه. وليس لمن حدث الملك أن يفسد ألفاظه وكلامه، بأن يقول في حديثه: فاسمع مني أو افهم عني أو يا هذا أو ألا ترى؛ فإن هذا وما أشبهه عي من قائله، وحشو في كلامه، وخروج من بسط اللسان، ودليل على الفدامة والغثاثة.

وليكن كلامه كلامًا سهلًا، وألفاظه عذبةً متصلة، وسقط كلامه قليلًا. فإذا فرغ من الحديث فليس له أن يصله بحديث آخر، وإن كان شبيهًا بالحديث الأول، حتى يرى أن الملك قد أقبل عليه بوجهه، وأصغى إلى حديثه. فإن أعرض لشغل يعرض له، فليس له أن يمر في حديثه، وأن يصل كلامه، فيحتاج الملك إلى الإصغاء إليه، ويحتاج إلى التشاغل بما عرض له، فيجمع عليه أمرين. فإن اتصل شغل الملك ترك الحديث، وإن انقطع فنظر إليه، فقد أذن له في إتمامه وإعادته.

ومن حق الملك ألّا يضحك من حديثه إذا حدث؛ لأن الضحك بحضرة الملك جرأة عليه، ولا يظهر التعجب بفائدة حديثه، وإنما هذا إلى الملك. فإن ضحك الملك من الحديث، وأظهر السرور به، فذاك غرض حديثه، وإليه قصد، وإن سكت، فلم يكن في الحديث ما يلهيه ويطربه أو يستفيد منه فائدة، كان قد سلم من العيب، إذ لم يضحك ولم يعجب.

إعادة الحديث على الملك

من حق الملك ألّا يعاد عليه الحديث مرتين، وإن طال بينهما الدهر، وغبرت بينهما الأيام، إلا أن يذكره الملك؛ فإن ذكره فهو إذن منه في إعادته.

وكان روح بن زنباعٍ يقول: أقمت مع عبد الملك سبع عشرة سنة من أيامه، ما أعدت عليه حديثًا. وكان الشعبي يقول: ما حدثت بحديث مرتين لرجلٍ بعينه قط.

وكان أبو العباس يقول: ما رأيت أحدًا أغزر علمًا من أبي بكر الهذلي، لم يعد علي حديثًا قط.

وكان ابن عياش يقول: حدثت المنصور أكثر من عشرة آلاف حديث، فقال لي ليلةً، وقد حدثته عن يوم ذي قارٍ: قد اضطررت إلى التكرار، يا بن عياش! قلت: ما هذا منها يا أمير المؤمنين. قال: أما تذكر ليلة الرعد والأمطار، وأنت تحدث عن ذي قار، فقلت لك: ما يوم ذي قار بأصعب من هذه الليلة؟

وكان الشرقي بن الفطامي يعيد الحديث مرارًا، وذلك أن أكثر أحاديثه مضاحيك، وكانت تعجب المهدي فيستعيده.

وكان ابن دأب إذا حدث موسى أمير المؤمنين بالحديث، أعاده عليه في القابلة حتى يحفظه. ويقال: إنه لم يسامر الخلفاء أحد كان أنبل من عيسى بن دأب، ولا أتم صنعةً، ولا أحسن ألفاظًا، ولا أفكه مجلسًا، ولا أعظم أبهةً وقدرًا منه. وكان عيسى بن دأب يتكئ في مجلس أمير المؤمنين، ولم يكن هذا لأحدٍ، غير أنه يحكى أن روح بن زنباع مرض فكان يدعو له عبد الملك بن مروان بمتكأ.

وعلى المحدث للملك ألّا يعجل في كلامه، وأن يدمج ألفاظه، ولا يشير بيده، ولا يحرك رأسه، ولا يزحف من مجلسه، ولا يراوح بين قعدته، ولا يرفع صوته، ولا يلتفت يمينًا ولا شمالًا، ولا يقبل على غير الملك بملاحظته، ولا يكون غرضه أن يسمع حديثه أو يفهم عنه سواه.

إشارات الذهاب من مجلس الملك

من حق الملك إذا تثاءب أو ألقى المروحة أو مد رجليه أو تمطى أو اتكأ أو كان في حالٍ فصار إلى غيرها مما يدل على كسله أو وقت قيامه، أن يقوم كل من حضره.

وكان قباذ إذا رفع رأسه إلى السماء، قام سماره. وكان سابور إذا قال: حسبك يا إنسان، قام سماره. وكان أنوشروان إذا قال: قرت أعينكم، قام سماره.

وكان عمر بن الخطاب إذا قال: الصلاة، قام سماره. وكان ينهى عن السمر بعد صلاة العشاء. وكان عثمان إذا قال: العزة لله! قام سماره. وكان معاوية إذا قال: ذهب الليل! قام سماره ومن حضره.

وكان عبد الملك إذا ألقى المخصرة، قام من حضره. وكان الوليد إذا قال: أستودعكم الله، قام من حضره. وكان الهادي إذا قال: سلام عليكم !قام من حضره. وكان الرشيد إذا قال: سبحانك اللهم وبحمدك! قام سماره. وكان المعتصم إذا نظر إلى صاحب النعل، قام من حضره. وكان الواثق إذا مس عارضيه وتثاءب، قام سماره. وكان المأمون إذا استلقى على فراشه، قام من حضره.

اغتياب الآخرين أمام الملك

من حق الملك ألّا يعاب عنده أحد، صغر أو كبر، غير أن من أخلاقها التحريش بين اثنين، والإغراء بينهما.

فمن الملوك من يدبر في هذا تدبيرًا يجب في السياسة، وذاك أنه يقال: قل اثنان استويا في منزلة عند الملك والجاه والتبع والعز والحظوة عند السلطان فاتفقا، إلا كان ذلك الاتفاق وهنًا على المملكة والملك، كانا متى شاءا أن ينقضا ما أبرم الملك ويحلا ما عقد، ويوهيا ما أكّد، قَدرا على ذلك للاتفاق والمجامعة.

ومتى انفصلا حتى يتباينا أو يتحاربا، كان تباينهما أثبت في نظام الملك، وأوكد في عز المملكة، وكان متى أراد هذا شيئًا، أراد الآخر خلافه. فإذا تباينا في ذات أنفسهما، اجتمعا على

نصيحة الملك، شاءا أم أبيا، وآثرها كل واحد منهما على هوى نفسه، وانتظم للملك تدبيره، وتم له أمره.

ومن الملوك من لا يقصد إلى هذا، ولا يكون غرضه الإغراء بين وزرائه وبطانته لهذه العلة، بل ليعرف معايب كل واحدٍ منهما.

آداب رسول الملك

من الحق على الملك أن يكون رسوله صحيح الفطرة والمزاج، ذا بيانٍ وعبارة، بصيرًا بمخارج الكلام وأجوبته، مؤديًا لألفاظ الملك ومعانيها، صدوق اللهجة، لا يميل إلى طمع ولا طَبَع[19]، حافظًا لما حمل. وعلى الملك أن يمتحن رسوله محنةً طويلةً، قبل أن يجعله رسولًا.

وكانت ملوك الأعاجم، إذا آثرت أن تختار من رعيتها من تجعله رسولًا إلى بعض ملوك الأمم، تمتحنه أولًا، بأن توجهه رسولًا إلى بعض خاصة الملك، ومن في قرار داره في رسائلها. ثم تقدم عينًا عليه، يحضر رسالته ويكتب كلامه.

فإذا رجع الرسول الرسالة، جاء العين بما كتب من ألفاظه وأجوبته، فقابل بها الملك ألفاظ الرسول. فإن اتفقت أو اتفقت معانيها، عرف الملك صحة عقله، وصدق لهجته، ثم جعله الملك رسولًا إلى عدوه، وجعل عليه عينًا يحفظ ألفاظه ويكتبها، ثم يرفعها إلى الملك. فإن اتفق كلام الرسول وكلام عين الملك، وعلم أن رسوله قد صدقه عن عدوه ولم يتزيد عليه للعداوة بينهما، جعله رسوله إلى ملوك الأمم، ووثق به. ثم كان بعد ذلك يقيم خبره مقام الحجة.

وكان أردشير بن بابك يقول: كم من دمٍ قد سفكه الرسول بغير حله! وكم من جيوش قد قتلت، وعساكر قد هزمت، وحرمةٍ قد انتهكت، ومال قد انتهب، وعهدٍ قد نقض، بخيانة الرسول وأكاذيبه!

وكان يقول: على الملك إذا وجه رسولًا إلى ملك آخر، أن يردفه بآخر، وإن وجه رسولين، أتبعهما باثنين، وإن أمكنه ألّا يجمع بين رسولين في طريقٍ ولا ملاقاةٍ ولا يتعارفان فيتواطآ، فعل. ثم عليه إن أتاه رسوله بكتاب أو رسالة من ملك في خير أو شر، ألّا يحدث في ذلك خيرًا أو شرًّا، حتى

يكتب إليه مع رسول آخر يحكي له ما في كتابة الأول حرفاً حرفاً ومعنًى معنًى، فإن الرسول ربما حُرم بعض ما أمّل، فافتعل الكتب، وحرض المرسل على المرسل إليه، فأغراه به، وكذب عليه.

ويقال: إن الأسكندر وجه رسولًا إلى بعض ملوك الشرق، فجاءه برسالة شك في حرفٍ منها فقال له الاسكندر: ويلك! إن الملوك لا تخلو من مقوم ومسدد إذا مالت، وقد جئتني برسالةٍ صحيحة الألفاظ، بينة العبارة، غير أن فيها حرفًا ينقضها، أفعلى يقين أنت من هذا الحرف أم شاك فيه؟ فقال الرسول: بل على يقين أنه قاله. فأمر الاسكندر أن تكتب ألفاظه حرفًا حرفًا، ويعاد إلى الملك مع رسولٍ آخر، فيقرأ عليه ويترجم له. فلما قرئ الكتاب على الملك، فمر بذلك الحرف، أنكره، فقال للمترجم: ضع يدي على هذا الحرف. فوضعها، فأمر أن يقطع ذلك الحرف بسكينة، فقطع من الكتاب.

وكتب إلى الإسكندر: إن رأس المملكة صحة فطرة الملك، ورأس الملك صدق لهجة رسوله، إذ كان عن لسانه ينطق، وإلى أذنه يؤدي. وقد قطعت بسكينتي ما لم يكن من كلامي؛ إذ لم أجد إلى قطع لسان رسولك سبيلًا.

فلما جاء الرسول بهذا إلى الإسكندر، دعا الرسول الأول، فقال: ما حملك على كلمةٍ أردت بها فساد ملكين؟ فأقر الرسول أن ذلك كان لتقصير رآه من الموجه إليه. فقال الإسكندر: فأراك لنفسك لسعيت، لا لنا! فلما فاتك بعض ما أملت، جعلت ذلك ثأرًا في الأنفس الخطيرة الرفيعة! فأمر بلسانه، فنزع من قفاه.

احتياط الملك

من أخلاق الملك ألّا يكون لمنامه في ليل ولا نهار موضع يعرف به، ولا حاوٍ[20] يقصد إليه؛ إذ كانت أنفس الملوك هي المطلوب غرتها، والموكل برعاية سنتها، وساعة غفلتها.

ويقال: إن ملوك آل ساسان لم يعرف مبيت أحد منهم قط، ولا مقيله. فأما أردشير بن بابك، وسابور، وبهرام، ويزدجرد، وكسرى أبرويز، وكسرى أنوشروان، فكان يفرش للملك منهم أربعون فراشًا، في أربعين موضعًا، ليس منها فراش إلا ومن رآه من بعيد على الانفراد، لا يشك أنه فراش الملك خاصةً، وأنه نائم فيه. ولعله ألّا يكون على واحد منها، بل لعله ينام على مجلس رقيق، وربما توسد ذراعه فنام.

ولو لم يجب على ملوكنا حفظ منامهم، وصيانته عن كل عين تطرف، وأذن تسمع، إلا أنّ النبي ﷺ فعله، وهو من الله بمكانه المخصوص من كلاءته إياه، وحراسة الروح الأمين له، لقد كان يحق عليهم أن يقتدوا به، ويمتثلوا فعله. وقد كان المشركون هموا بقتله، فأخبره جبريل ـ صلى الله عليهما ـ عن الله جل ثناؤه بذلك، فدعا علي بن أبي طالب، فأنامه على فراشه، ونام هو ﷺ بمكان آخر.

فلما جاء المشركون إلى فراشه، فنهض منه علي، انصرفوا عنه. ففي هذا أكبر الأدلة، وأوضح الحجة على ما ذكرنا؛ إذ كانت أنفس الملوك هي الأنفس الخطيرة الرفيعة التي توزن بنفوس كل من أظلت الخضراء، وأقلت الغبراء.

وكانت الأعاجم تقول: لا ينبغي للملك أن يطلع على موضع منامه إلا الوالدان فقط؛ فأما من دونهما، فالوحشة منه وترك الثقة به أبلغ في باب الحزم وأوكد في سياسة الملك، وأوجب في الشريعة، وأوقع في الهوينى.

معاملة ابن الملك للملك

من حق الملك أن يعامله ابنه كما يعامله عبده، وألّا يدخل مداخله إلا عن أذنه، وأن يكون الحجاب عليه أغلظ منه على من هو دونه من بطانة الملك وخدمه؛ لئلا تحمله الدالة على غير ميزان الحق.

فإنه يقال أن يزدجرد رأى بهرام ابنه بموضعٍ لم يكن له، فقال: مررت بالحاجب؟ قال: نعم. قال: وعلم بدخولك؟ قال: نعم. قال: فاخرج إليه واضربه ثلاثين سوطًا، ونحه عن الستر، ووكل بالحجابة أرادمرد. ففعل ذلك بهرام، وهو إذ ذاك ابن ثلاث عشرة، ولم يعلم الحاجب فيم غضب الملك عليه. فلما جاء بهرام بعد ذلك ليدخل، دفع أرادمرد في صدره دفعةً وَقَذَهُ[21] منها، وقال: إن رأيتك بهذا الموضع ثانيةً، ضربتك ستين سوطًا: ثلاثين منها لجنايتك على الحاجب أمس، وثلاثين لئلا تطمع في الجناية علي. فبلغ ذلك يزدجرد، فدعا أرادمرد، فخلع عليه وأحسن إليه.

ويقال أن يزيد بن معاوية كان بينه وبين أبيه باب، فكان إذا أراد الدخول عليه قال: يا جارية! انظري هل تحرك أمير المؤمنين. فجاءت الجارية مرة حتى فتحت الباب، فإذا معاوية قاعد، وفي حجره مصحف، وبين يديه جارية تصفح عليه. فأخبرت يزيد بذلك، فجاء يزيد، فدخل على معاوية. فقال له: أي بني! إني إنما جعلت بيني وبينك بابًا، كما بيني وبين العامة، فهل ترى أحدًا يدخل من الباب إلا بإذنٍ؟ قال: لا. قال: فكذلك فليكن بابك، فإذا قرع عليك فهو إذنك.

وهكذا ذكر لنا أن موسى الهادي دخل على أمير المؤمنين المهدي، فزبره، وقال: إياك أن تعود إلى مثلها إلا أن يفتح بابك!

وذكر لنا أن المأمون لما استعر به الوجع سأل بعض بنيه الحاجب أن يدخله عليه ليراه، فقال: لا والله، ما إلى ذلك سبيل، ولكن إن شئت أن تراه من حيث لا يراك، فاطلع عليه من ثقبٍ في ذلك الباب. فجاء حتى اطلع عليه، وتأمله، ثم انصرف.

وذكر لنا أن إيتاخ بَصُرَ بالواثق في حياة المعتصم واقفًا في موضعٍ لم يكن له أن يقف فيه، فزبره، وقال: تنح! فوالله لولا أني لم أتقدم إليك في ذلك، لضربتك مئة عصًا.

وليس لابن الملك من الملك إلا ما لعبده من الاستكانة والخضوع والخشوع، ولا له أن يظهر دالة الأبوة وموضع الوراثة؛ فإن هذا إنما يجوز في النمط الأوسط من الناس، ثم الذين يلونهم، فأما الملوك فترقى عن كل شيء يمت به.

وليس لابن الملك أن يسفك دمًا، وإن أوجبت الشريعة سفكه، وجاءت الملة به، إلا عن إذن الملك ورأيه؛ لأنه متى تفرد بذلك، كان هو الحاكم دون الملك، وفي هذا وهن على الملك، وضعف في المملكة. وكذلك أيضاً ليس له أن يحكم في الحلال والحرام والفروج والأحكام، وإن كان ولي عهد الملك، والمقلد إرث أبيه، والمحكوم له بالطاعة، إلا عن أمره ورأيه. وليس له ـ إذا جمعته والملك دار واحدة ـ أن يأكل إلا بأكل الملك، ولا أن يشرب إلا بشربه، ولا أن ينام إلا بمنامه. وكذا يجب عليه في كل شيء من أموره السارة والضارة أن يكون له تابعًا، ولحركته تاليًا.

وليس هذا على من دون ابن الملك من بطانته وسائر رعيته؛ لأن ابن الملك عضو من أعضائه، وجزء من أجزائه، والملك أصل، والابن فرع، والفرع تابع للأصل، والأصل مستغنٍ عن الفرع.

وليس لابن الملك أن يرضى عمن سخط عليه الملك، وإن كان المسخوط عليه لا ذنب له عنده؛ لأن من العدل والحق عليه أن يوالي من والى الملك، ويعادي من عاداه. ولا ينظر في هذا إلى حظ نفسه، وإرادة طبعه، حتى يبلغ من حق الملك ما إن وجد إلى غيلته سبيلًا أن يقتله، وعلى هذا ينبغي أن يكون نظام العامة لملكها.

شهوة الاستبدال لدى الملك

قد تحدث في أخلاق الملك ملالة لشهوة الاستبدال فقط، فليس لصاحب الملك، إذا أحدث الملك خلقًا، أن يعارضه بمثله، ولا إذا رأى نبوةً وازورارةً أن يحدث مثله، فإنه متى فعل ذلك فسدت

نيته، ومن فسدت نيته عادت طاعته معصيةً، وولايته عداوةً. ومن عادى الملك فنفسه عادى، وإياها أهان.

ولكن عليه، إذا أحدث الملكُ الخُلُقَ الذي عليه بنية أكثر الملوك، أن يحتال في صرف قلبه إليه. والحيلة في ذلك يسيرة: إنما هو يطلب خلوته، فيلهيه بنادرةٍ مضحكة، أو ضرب مثلٍ نادرٍ، أو خبرٍ كان عنه مغطًّى، فيكشفه له.

كما فعل بعض سمار ملوك الأعاجم: أظهر الملك له جفوة الملالة فقط، فلما رأى ذلك، تعلم نباح الكلاب، وعواء الذئاب، ونهيق الحمير، وصياح الديوك، وشحيج البغال، وصهيل الخيل.

ثم احتال حتى دخل موضعًا يقرب من مجلس الملك وفراشه يخفي أمره، فنبح نباح الكلاب، فلم يشك الملك أنه كلب وابن كلب. فقال: انظروا ما هذا؟ فعوى عواء الذئاب، فنزل الملك عن سريره، فنهق نهيق الحمار، ومر الملك هاربًا. وجاء غلمانه يتبعون الصوت، فلما دنوا منه، أحدث معنىً آخر، فأحجموا عنه، ثم اجتمعوا فاقتحموا عليه، فأخرجوه وهو عريان مختبئ.

فلما نظروا إليه، قالوا للملك: هذا مازيار المضحك! فضحك الملك حتى تبسط، وقال: ويلك! ما حملك على هذا؟ قال: إن الله مسخني كلبًا وذئبًا وحمارًا، لما غضب علي الملك. فأمر أن يخلع عليه، ويرد إلى موضعه. وهذا لا يفعله إلا أهل الطبقة السفلى.

صلاح الجفوة في التأديب

ربما كانت جفوة الملك أصلح في تأديب الصاحب من اتصاله بالأنس، وإن كان ذلك لا يقع بموافقة المجفو؛ لأن فيها فراغ المجفو لنفسه، وتخلصه لأمره، ولما كان لا يمكنه الفراغ له من مهم أمره.

وفيها أيضًا أنه إن كان المجفو من أهل السمر، وأصحاب الفكاهات، فبالحرى أن يستفيد بتلك الجفوة علمًا طريفًا محدثًا له بالكتب ودراستها أو بالمشاهدة والملاقاة، وربما كان لا يمكنه قبل ذلك وهو في شغله.

ومنها أن جفوة الملك ربما أدبت الصاحب الأدب الكبير؛ وذاك أنه كلَّ مَنْ أَنْفَسَ الملكُ مجلسَه، وطال معه قعودُه، وبه أُنسه؛ تمنى الفراغ، وطلبت منه نفسه التخلص والراحة والخلوة لإرادة نفسه. كما أنه من كثر فراغه وقل أناسه، جفي واطرح، وطلب الشغل والأنس وما أشبه ذلك، فبهذه الأخلاق ركبت الفطر، وجبلت النفوس. فإذا جاءه الفراغ الذي كان يطلبه ويتمناه من الجهة التي لم يقدرها، طلبت نفسه الموضع الذي يمله، والشغل الذي كان يهرب منه.

ومنها أنه كان في عز ومنعةٍ، وأمرٍ ونهيٍ، وكان مرغوبًا إليه، مرهوبًا منه. ثم لما حدثت جفوة الملك أنكر ما كان يعرف، وعصاه من كان له مطيعًا، وجفاه من كان به برًّا.

ومنها أن جفوة الملك تحدث رقة على العامة، ورأفةً بهم، وتحدث للمجفو حسن نيةٍ. ومنها أن الرضا، إذا كان يعقب الجفوة، وجب على المجفو شكر الله تعالى على ما ألهم الملك فيه، فتصدق وأعطى، وصام وصلى. فكل شيءٍ من أمر الملك حسن في الرضا والسخط، والأخذ والمنع، والبذل والإعطاء، والسراء والضراء.

غير أنه يجب على الحكيم المميز أن يجهد بكل وسع طاقته أن يكون من الملك بالمنزلة بين المنزلتين؛ فإنها أحرى المنازل بدوام النعمة، واستقامة الحال، وقلة التنافس، ومصارعة أهل الحسد والوشاة.

سخاء الملك وحياؤه

من أخلاق الملك السخاء والحياء؛ فهما قرينا كل ملكٍ كان على وجه الأرض. ولو قال قائل: إنهما ركبا في الملوك كتركيب الأعضاء والجوارح، كان له أن يقول؛ إذ كنا لم نشاهد، ولم يبلغنا عمن مضى من الملوك، ملوك العجم ومن كان قبلهم، وملوك الطوائف وغيرهم، القحة والبخل.

فأما السخاء، فلو لم يكن أحد طبائع الملوك، كان يجب أن يكون باكتسابٍ إن كان الملك من أهل التمييز؛ وذلك أنه يفيد أكثر مما ينفق. فإذا كانت هذه صفة كل ملك، فما عليه من اتخاذ الصنائع، وعم المنن، والإحسان إلى من نأى عنه أو دنا منه من أوليائه، والرحمة للفقير والمسكين، والعائدة إلى أهل الحاجة.

وأما الحياء، فهو من أجناس الرحمة، وحقيق للملك إذ كان الراعي أن يرحم رعيته، وإذ كان الإمام أن يرق على المؤتم به، وإذ كان المولى أن يرحم عبده. فقد تخطئ العامة وكثير من الخاصة في الملوك، حتى يسمونهم بغير أسمائهم، ويصفونهم بغير صفاتهم، وينحلونهم البخل والإمساك، إذا رأوا الملك على سننٍ من القصد، وعدلٍ من حد الإنفاق.

وقد ذكر بعض من لا يعلم، في كتاب ألفه في البخلاء من الملوك، أن هشام بن عبد الملك بن مروان، ومروان بن محمد، وأبا جعفر المنصور وغيره منهم. ولولا أنا احتجنا إلى الإخبار عن جهل هذا، لم يكن لذكره معنًى، ولا للتشاغل بالرد عليه.

وكيف يكون المنصور ممن دخل في جملة هذا القول، ولا يعلم أن أحدًا من خلفاء الإسلام، ولا ملوك الأمم، وصل بألف ألفٍ لرجلٍ واحدٍ غيره! ولقد فرق على جماعة من أهل بيته عشرة آلاف ألف درهم.

اعتلال الملك

من حق الملك إذا اعتل، ألّا تطلب خاصته الدخول عليه في ليل ولا نهار، حتى يكون هو الذي يأمر بالإذن لمن حضر، وألّا يرفع إليه الحاجب أسماءهم مبتدئًا، حتى يأذن له. فإذا أذن له بالدخول، فمن حقه ألّا تدخل عليه الطبقة العالية مع التي دونها، ولا يدخل عليه من هذه الطبقة جماعة، ومن غيرها جماعة.

ولكن على الحاجب أن يحضر الطبقات الثلاث كلها أو من حضر منها، ثم يأذن للعليا جملةً. فإذا دخلت قامت بحيث مراتبها، فلم تسلم عليه، فتحوجه إلى رد السلام، فإذا علمت أنه قد لاحظها، دعت له دعاءً يسيرًا موجزًا، ثم خرجت. ودخلت التي تليها، فقامت على مراتبها أقل من قيام الأولى، ودعت دعاءً أقل من دعاء الأولى، ثم دخلت بعدهما الثالثة، فكان حظها أن يراها فقط.

جوائز البطانة

من الحق على الملك تعهد بطانته وخاصته بجوائزهم وصلاتهم، إن كان ذلك يكون مشاهرةً أو مساناةً. ومن أخلاق الملك أن يوكل بادّكاره صِلاتهم، ولا يحوج أحدًا منهم إلى رفع رقعةٍ أو إذكار أو تعريضٍ؛ فإن هذا ليس من أخلاق المتيقظ من الملوك.

وكانت ملوك آل ساسان يفعلون في هذا فعلًا بقي لهم ذكره إلى هذه الغاية، وإلى انقضاء مدة العالم؛ فكان الملك منهم يقدر الرجل من خاصته وبطانته تقديرًا وسطًا بين الإسراف والاقتصاد في مؤنه كلها، وحوائجه خاصها وعامها، فإذا كان التقدير على الجهة التي وصفنا، عشرة آلاف درهم في الشهر، وكانت للرجل ضيعة، أمر أن يدفع إليه في كل ثلاثين ليلة عشرة آلاف درهم، لأنزاله[22] ونفقاته وحوائجه.

ويقول له الملك: قد علمنا أن الضيعة التي أفدتها هي مما تقدم من صلاتنا لك، وقد تسلفنا شكر تلك النعمة منك، وليس من العدل أن تكون في خدمتنا، وتكون نفقتك من شيء أفدته بشكرٍ قد تقدم، وحرمة قد تأكدت. فليكن ما أثمرت لك ضيعتك ظهريًّا لنوائب الزمان، وتخرم الأيام، وانقلاب الدول، وحوادث الموت، ولتكن مؤنك وكلفك على خاص أموالنا.

وكذلك الطبقات على هذا النظام والإحكام، فيمضي على أحدهم عشرون سنة لا يفتح فاه بطلب درهم ولا غيره، منبسطًا لزمانه، مبتهجًا بنعم ملكه، مسرورًا بما يكفي عن التذكار وشكوى الحال.

هدايا المهرجان والنيروز

من حق الملك هدايا المهرجان والنيروز، والعلة في ذلك أنهما فصلا السنة؛ فالمهرجان دخول الشتاء وفصل البرد، والنيروز إذن بدخول فصل الحر. إلا أن في النيروز أحوالًا ليست في المهرجان؛ فمنها استقبال السنة، وافتتاح الخراج، وتولية العمال، والاستبدال، وضرب الدراهم والدنانير، وتذكية بيوت النيران، وصب الماء، وتقريب القربان، وإشادة البنيان، وما أشبه ذلك. فهذه فضيلة النيروز على المهرجان.

ومن حق الملك أن يهدي إليه الخاصة والحامة، والسنة في ذلك عندهم أن يهدي الرجل ما يحب من ملكه، إذا كان في الطبقة العالية. فإن كان يحب المسك، أهدى مسكًا لا غيره، وإن يحب العنبر، أهدى عنبرًا، وإن كان صاحب بزة ولبسة، أهدى كسوةً وثيابًا، وإن كان الرجل من الشجعاء والفرسان، فالسنة أن يهدي فرسًا أو رمحًا أو سيفًا، وإن كان راميًا، فالسنة أن يهدي نشابًا، وإن كان من أصحاب الأموال، فالسنة أن يهدي ذهبًا أو فضةً، وإن كان من عمال الملك، وكانت عليه موانيذ للسنة الماضية، جمعها وجعلها في بدرِ حريرٍ صيني، وشريحات فضة، وخيوط إبريسم، وخواتيم عنبر، ثم وجهها.

وكذلك إنما كان يفعل من العمال من أراد أن يتزين بفضل نفقاته أو بفضل عمالته أو أداء أمانته، وكان يهدي الشاعر الشعر، والخطيب الخطبة، والنديم التحفة والطرفة والباكورة من الخضروات. وعلى خاصة نساء الملك وجواريه أن يهدين إلى الملك ما يؤثرنه ويفضلنه كما قدمنا في الرجال.

غير أنه يجب على المرأة من نساء الملك، إن كانت عندها جارية تعلم أن الملك يهواها ويسر بها، أن تهديها إليه بأكمل حالاتها، وأفضل زينتها، وأحسن هيئاتها. فإذا فعلت ذلك، فمن حقها على الملك أن يقدمها على نسائه، ويخصها بالمنزلة، ويزيدها في الكرامة، ويعلم أنها قد آثرته على نفسها، وبذلت له ما لا تجود النفس به، وخصته بما ليس في وسع النساء ـ إلا القليل منهن ـ الجود به.

ومن حق البطانة والخاصة على الملك في هذه الهدايا أن تعرض عليه، وتقوم قيمة عدل. فإذا كانت قيمة الهدية عشرة آلافٍ، أثبتت في ديوان الخاصة، فإن كان صاحبها ممن يرغب في الفضل، ويذهب إلى الربح، ثم نابته نائبة من مصيبةٍ يصاب بها، أو بناءٍ يتخذه، أو مأدبةٍ يأدبها، أو عرسٍ يكون من تزويج ابنٍ، أو إهداء ابنةٍ إلى بعلها، نظر إلى ماله في الديوان، وقد وكل بذلك رجل يرعى هذا وما أشبهه ويتعهده، فإذا كانت قيمة الهدية عشرة آلافٍ، أضعفت له ليستعين بها على نائبته. وإن كان الرجل ممن أهدى نشابةً أو درهمًا أو تفاحةً أو أترجة، فإن تلك الهدية إنما قدمها لتثبت له في الديوان، ويخبر الملك إن نابته نائبة، فعلى الملك إعانته عليها، إذا كان من أساورته وبطانته أو محدثيه.

لهو الملوك وشربهم

من أخلاق الملوك اللهو، غير أن أسعدهم من جعل للهوه وقتًا واحدًا، وأخذ نفسه بذلك. فإنه إذا فعل ذلك، استطاب اللهو والهزل والمفاكهة، وإذا أدمن ذلك خرج به اللهو من بابه، حتى يجعله جدًّا لا هزل فيه، وحقًّا لا باطل معه، وخلقًا لا يمكنه الانصراف عنه. وليس هذا صفة الملك السعيد.

ومن أدمن شيئًا من ملاذ الدنيا، لم يجد له من اللذة وجود القرم النهم المشتاق. وهذا قد نراه عيانًا؛ وذلك أن ألذ الطعام وأطيبه ما كان على جوع شديدٍ، وألذ الجماع وأطيبه إذا اشتد الشبق وطالت العزبة، وألذ النوم وأهنأه ما كان بعقب التعب والسهر. وعلى هذا جميع ملاذ الدنيا.

فالملوك الماضية إنما جعلت للملاذ وقتًا واحدًا من اليوم والليلة، لهذه الفضيلة التي فيها.

فعلى الملك السعيد أن يقسم يومه أقسامًا: فأوله لذكر الله تعالى وتعظيمه وتهليله؛ وصدره لرعاياه وإصلاح أمرها؛ ووسطه لأكله ومنامه، وطرفه للهوه وشغله، وألّا يثابر على إدمان الشغل في كل يوم. وإن طالت هذه الأقسام بمواضعها، فلا يجد للهو لذته، ولا للنعيم موضعه الذي هو به.

وكانت الملوك الماضية من الأكاسرة تشرب في كل ثلاثة أيامٍ يومًا، إلا بهرام جور والأردوان الأحمر وسابور؛ فإنهم كانوا يدمنون الشرب في كل يوم. وكان ملوك العرب، كالنعمان، وملوك الحيرة، وملوك الطوائف، أكثرها يشرب في كل يومٍ وليلةٍ مرةً.

لبس الملوك وتطيبهم

أخلاق الملوك تختلف في اللبسة والطيب؛ فمن الملوك من كان لا يلبس القميص إلا يومًا واحدًا أو ساعةً واحدةً، فإذا نزعه لم يعد إلى لبسه. ومنهم من كان يلبس القميص والجبة أيامًا، فإذا ذهب رونقه رمى به فلم يلبسه بعد.

فأما أردشير بن بابك، ويزدجرد، وبهرام، وكسرى أبرويز، وكسرى أنوشروان، وقباذ، فإنهم كانوا يلبسون القميص، ويغسل لهم، ثم يلبسونه ويغسل لهم. فإذا غسل ثلاث عركاتٍ لم يغسل بعدها، وجعل في الخلع التي تخلع على الولد والقرابات والعم وابن العم والأخ وابن الأخ.

ولم يكونوا يخلعون ما قد لبسوه إلا على القرابات من أهل بيت المملكة خاصةً، لا يجاوزونهم إلى غيرهم. فأما الخلع التي تقطع وتتخذ للطبقات وسائر الناس، فتيك صنف آخر.

وكان ملوك العرب، منهم من يلبس القميص مرارًا، ويُغسل له غسلاتٍ: معاويةُ وعبد الملك وسليمان وعمر بن عبد العزيز وهشام ومروان بن محمدٍ وأبو العباس وأبو جعفر والمأمون.

فأما يزيد بن معاوية، والوليد بن يزيد، ويزيد بن الوليد، والمهدي والهادي والرشيد والمعتصم والواثق؛ فإنهم كانوا لا يلبسون القميص إلا لبسةً واحدةً، إلا أن يكون الثوب نادرًا معجبًا غريبًا.

فأما الجباب والأردية فلم تزل الملوك تلبسها السنة أو أكثر أيام السنة، ومنهم من كان يلبس الجبة والمطرف السنين الكثيرة. وليس الجباب والأردية، كالقميص والسراويل؛ لأن القميص والسراويل هما الشعار، وسائر الثياب الدثار؛ ولذلك كره من كره إعادة لبسها.

عبق الطيب في ثيابه

أخلاق الملوك في البطر ومس الطيب وتغلل الغالية تختلف؛ فمن الملوك من إذا مس الطيب وتغلل بالغالية، لم يعد إلى مس طيبٍ ما دام عبقها في ثوبه. ومن الملوك من كان إذا مس الطيب، وتغلل بالغالية، فتضوعت منه وعلقت بثيابه، أمر بصب ماء الورد على رأسه حتى يسيل. فإذا كان من غدٍ، فعل مثل ذلك. فأما من كان لا يمس طيبًا ما دام يجد

فأردشير بن بابك، وقباذ بن فيروز بن يزدجرد، وكسرى ابرويز، وكسرى أنوشروان؛ ومن ملوك العرب: معاوية وعبد الملك والوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز وهشام ومروان بن محمد؛ ومن خلفاء بني العباس، وأبو جعفر، والمأمون.

وكان المعتصم قلما يمس الطيب. وكان يذهب في ذلك إلى تقوية بدنه وإعانته على شدة البطش والأيد.

وأما في أيام حروبه فكان من دنا منه، وجد رائحة صدأ السلاح والحديد من جسمه.

زيارة الملوك لخاصتهم

من أخلاق الملوك الزيارة لمن خُصّ بالتكرمة منهم وآثروه المنزلة ورفع المرتبة، وزيارة الملك على أربعة أقسام: فمنها الزيارة للمطاعمة والمنادمة، ومنها الزيارة للعيادة، ومنها الزيارة للتعزية في المصيبة، ومنها الزيارة للتعظيم فقط.

وأكبر هذه الأقسام وأرفعها ذكرًا الزيارة للتعظيم؛ لأن هذه الأقسام الثلاثة أكثر ما تقع وتتفق بسؤال المزور الملك، وتلطفه في ذلك. وربما رفع الملك مرتبة الوزير وخصه، وقدمه على سائر بطانته، فيكون من حيل الوزير أن يتعالل فيعوده الملك، فيظهر للعامة منزلته عنده وتكرمته إياه وإيثاره له.

وأيضًا فقل ملك سأله وزيره أو صاحب جيشه أو أحد عظمائه زيارته إلا أجابه إلى ذلك، ولا سيما إذا علم أن غرضه في ذلك الزيارة في المرتبة، والتنويه بالذكر. فإذا كانت الزيادة من الملك على أحد هذه الأقسام الثلاثة، فهي منزلة كان صاحبها يحاولها فبلغها، وأمنية طلبها فأدركها.

فأما الزيارة للتعظيم، فإنها لا تقع بسؤالٍ، ولا بإرادة المزور؛ إذ كان ليس من أخلاق وزيرٍ ولا شريفٍ أن يقول للملك: زرني لتعظمني، ولترفع في الناس من ذكري وقدري. فإذا كان ذلك من الملك ابتداءً، فقد علمنا أن تلك أرفع مراتب الوزراء، وأفضل درجات الأشراف.

وكان أردشير وأنوشروان إذا زارا وزيرًا من وزرائهما أو عظيمًا من عظمائهما للتعظيم لا لغيره، أرخت الفرس تلك الزيارة، وخرجت بذلك التاريخ كتبهم إلى الآفاق والأطراف.

وكانت سنة من زاره الملك للتعظيم أن تُوغرَ[23] ضياعه، وتوسم خيله ودوابه، لئلا تسخر ولا تمتهن. ويأتيه خليفة صاحب الشرطة في كل يوم مع ثلاثمئة راكبٍ ومئة راجلٍ، يكون ببابه إلى غروب الشمس، فإن ركب كانت الرجالة مشاةً أمامه والركبان من خلفه. ولا يحبس أحد من حامته وخاصته لجنايةٍ جناها، ولا يحكم على أحدٍ من عبيده بحكمٍ، وإن وجب على أحدٍ من بطانته حد، وجه به إليه ليرى فيه رأيه، ويؤخر عليه وظيفة ما عليه من خراج أرضه حتى يكون هو الحامل له، وتقدم هداياه في النيروز والمهرجان على كل هدية، وتعرض على الملك، ويكون أولَ مَن يأذن له الحاجبُ، ويكون من الملك ـ إذا ركب عن يمينه ـ منزويًا، وتكون مرتبته إذا قعد عن يمينه، وإذا خرج من دار المملكة، لم يقعد بعده أحد.

وكانت ملوك آل ساسان لا تزور أحدًا لعلةٍ من هذه العلل التي قدمنا ذكرها، فينصرف[24] بخلعه أو طيبٍ أو تحفةٍ أو هديةٍ من جاريةٍ أو غلام. غير أنه كان إذا نزل الملك وطأ لرجله فرسًا رائعًا بسرج مذهبٍ، وأداةٍ تامة، فقُدِّمَ إليه إذا أراد الانصراف.

فكان الأمر كذلك، حتى ملك بهرام بن يزدجرد، فكان ينادم الأساورة من أبناء أهل الشرف، فيخلع عليه في كل ساعةٍ خلعة مجددة، ويشتهي الزامرة والمغنية والرقاصة، فيأخذها. وكان أول من أطلق يده في ذلك، لغلبة اللهو عليه، وإيثاره هواه. فأما من كان من ملوكهم، فعلى الأمر الذي ذكرنا، والحكاية التي أدينا.

استقبال الملوك للناس في الأعياد

من أخلاق الملك القعود للعامة يومًا في النيروز، ولا يحجب عنه أحد في هذين اليومين من صغير ولا كبير، ولا جاهلٍ ولا شريف.

وكان الملك يأمر بالنداء قبل قعوده بأيام، ليتأهب الناس لذلك، فيهيئ الرجل القصة، ويهيئ الآخر الحجة في مظلمته، ويصالح الآخر صاحبه إذا علم أن خصمه يتظلم منه إلى الملك. فيأمر

الموبذ أن يوكّل رجالًا من ثقات أصحابه، فيقفون بباب العامة، فلا يمنع أحد من الدخول على الملك. وينادي مناديه: من حبس رجلًا عن رفع مظلمته، فقد عصى الله، وخالف سنة الملك، ومن عصى الله، فقد أذن بحربٍ منه ومن الملك.

ثم يؤذن للناس، وتؤخذ رقاعهم فينظر فيها، فإن كان فيها شيء يتظلم فيه من الملك بدئ به أولًا، وقدم على كلّ مظلمة.

ويُحضِرُ الملكُ الموبذَ الكبير والدبيربذ ورأس سَدَنةِ بيوت النار، ثم يقوم المنادي فينادي: ليعتزل كل من تظلم من الملك. فيمتازون. ويقوم الملك مع خصومه حتى يجثو بين يدي الموبذ فيقول له: أيها الموبذ، إنه ما من ذنبٍ أعظم عند الله من ذنب الملوك، وإنما خولها الله تعالى رعاياها لتدفع عنها الظلم، وتذبَّ عن بيضة المُلْكِ جَوْرَ الجائرين، وظلم الظالمين. فإذا كانت هي الظالمة الجائرة، فحق لمن دونها هدم بيوت النيران، وسلب ما في النواويس من الأكفان.

عقوبة الملك الظالم

ذكرت الأعاجم في كتبها وسير ملوكها أنه بينا هو[25] قاعد في الإيوان، والناس على طبقاتهم ومراتبهم، إذ دخل من باب الإيوان فرس مسرج ملجم، لم ير قط شيء أحسن منه منظرًا، ولا أكمل أداةً. فأهوى نحو يزدجرد.

فقامت إليه الأساورة لتدفعه عنه، فجعل لا يدنو منه أحد إلا رمحه فأرداه، وهو في خلال ذلك يقصد إلى الملك، فقام إليه يزدجرد، وقال للأساورة: دعوه، فإنه إلي يقصد. فدنا منه حتى أخذ بِمَعْرِفَتِهِ، فذلّ له الفرس، وتطامن حتى ركبه. فلما جال في متنه، خطا به خطًا، ثم رده إلى قرار مجلسه، فنزل عنه، وجعل يمسحه بيده، مقبلًا ومدبرًا.

حتى إذا وجد الفرس منه مَمْكَنًا وغفلةً، رمحه فأصاب حبة قلبه، فقتله. فقالت الفرس :هذا ملك من الملائكة، جعله الله في صورة فرس، فبعثه لقتل يزدجرد، لما ظلم الرعية، وعاث في الأرض.

وكان بهرام جور بن يزدجرد في حجر النعمان بن المنذر، ملك الحيرة، وضعه أبوه عنده ليتأدب بآداب العرب، ويعرف أيامها وأخبارها ولغاتها، فبلغه خبر أبيه، وأن الفرس ملكت عليها رجلًا ليس من أبناء ملوكها. فاستنهض النعمان بن المنذر واستنجده، وقال: إن لي عليك حقًّا؛ إذ كنتُ أحد أولادك. وإن أبي قد مات، وملَّكَتِ الفُرْسُ رجلًا من غير بيت الملك، فإن أنت خذلتني ذهب ملك آل ساسان. فقال له النعمان: ما أنا وآل ساسان، وهم الملوك وأنا رعية؟ ولكني أخرج معك في جيشي لتقوى نيتك، وتصح عزمتك، ثم أنت أولى بقومك، وهم أولى بك. قال: فهذا أريد.

فخرج النعمان مع بهرام حتى صار بالمدائن، وبلغ الفرس قدومهما، فخرجوا إلى بهرام، فقالوا: ما تريد؟ فقال: ملك أبي وإرث آل ساسان. قالوا: إن أباك سامنا العذاب أيام مدته، فانفرد الله بقتله، فلا حاجة لنا في أحدٍ من عقبه.

فقال بهرام: إن جور أبي وظلمه لا يلزمني لائمةً، ولا يكسبني ذمًّا، وأنتم لم تخبروني، فيجب علي حمد أو ذم. قالوا: فإنا قد أقمنا رجلًا نرضاه. فقال: إن هذا فساد في صلب المملكة أن تملكوا من ليس من أهلها. فإذا فعلتم، فامتحنوني وهذا الرجل محنةً توجب المملكة.

قالوا: وما هي؟ قال: تعمدون إلى أسدين ضاريين فتجمعونهما في موضعٍ واحدٍ، وتضعون تاج المملكة بينهما، وتقولون لهذا الذي ملكتموه أمركم يأخذ من بينهما، فإن فعل فهو أحق بالملك وأولى. وإن أبى أن يفعل، وفعلت أنا ذلك، كنت أحق بالملك منه. قالوا: نعرض عليه هذا. فقالوا ذلك له، فقال: ما أقدر على هذا، ولكن قولوا له فليفعل، فإن أخذ التاج من بين الأسدين، فهو أحق بالملك وأولى.

فأخذوا التاج، وعمدوا إلى أسدين فأجاعوهما، ثم وضعوا التاج بينهما، وقالوا لبهرام: شأنك! فنزل بهرام عن فرسه، وأخذ الطبرزين[26] ومضى نحوهما. ثم بدا له، فجعل الطبرزين في منطقته؛ ودنا من الأسدين، فأهويا نحوه، فأخذ برأس أحدهما فأدناه من رأس الآخر ثم نطحه به حتى قتلهما جميعًا. وشد على التاج، فأخذه من موضعه، فجعله على رأسه.

فملكته الفرس أمرهم، وانصرف النعمان إلى الحيرة، وسار بهرام سيرةً حسنةً، وعدل فيهم، حتى كان أحب إليهم من جميع ملوك آل ساسان. إلا أن اللهو واللعب كان أغلب أحواله عليه.

استقصاء أحوال الرعية

من أخلاق الملك السعيد البحث عن سرائر خاصته وحامته، وإذكاء العيون عليهم خاصةً، وعلى الرعية عامة. وإنما سمي الملك راعيًا، ليفحص عن دقائق أمور الرعية وخفي نياتهم. ومتى غفل الملك عن فحص أسرار رعيته، والبحث عن أخبارها، فليس له من اسم الراعي إلا رسمه، ومن الملك إلا ذكره.

فأما الملك السعيد، فمن أخلاقه البحث عن كل خفي ودفين حتى يعرفه معرفة نفسه عند نفسه، وألّا يكون شيء أهم ولا أكبر في سياسته ونظام ملكه من الفحص عما قدمنا ذكره.

ولم ير ملك قط كان أعجب في هذا الأمر من أردشير بن بابك، ويقال: إنه كان يصبح فيعلم كل شيء بات عليه من كان في قصبه دار مملكته من خيرٍ أو شر، ويمسي فيعلم كل شيءٍ أصبحوا عليه. فكان متى شاء قال لأرفعهم وأوضعهم: كان عندك في هذه الليلة كيت وكيت. ثم يحدثه بكل ما كان فيه إلى أن أصبح. فيقال: إن بعضهم كان يقول: إنه كان يأتيه ملك من السماء، فيخبره. وما كان ذلك إلا لتيقظه وكثرة تعهده لأمور رعيته، ثم كان فيمن نأى من أهل مملكته على مثل هذه الحال.

الملوك أمام الأمور الجليلة

من أخلاق الملك، إذا دهمه أمر جليل من فتق ثغر، أو قتل صاحب جيشٍ، أو ظهور عدو يدعو إلى خلاف الملة، أو قوة مناوئٍ، أن يترك الساعات التي فيها لهوه، ويجعلها وسائر الساعات في تدبير مكايدة عدوه، وتجهيز جنوده وجيوشه، وأن يصرف في ذلك شغله وفكره وفراغه على مثل ما فعل من مضى من ملوك الأعاجم وغيرها، ولا يجعل للتسويف والتمني وحسن الظن بالأيام نصيبًا. فإن هذا عجز من الملك، ووهن يدخل على الملك.

وكانت الخلفاء والأمراء، إذا دهمهم أمر فزعوا إلى المنابر، وحرضوا الناس على الطاعة ولزوم الجماعة. وفيما يذكر عن معاوية أنه قال: ما ذقت أيام صفين لحمًا ولا شحمًا ولا حلوًا ولا حامضًا؛ ما كان إلا الخبز والجبن وخشن الملح، إلى أن تم لي ما أردته.

الحرب خدعة

من أخلاق الملوك المكايدة في حروبها؛ ولذلك كان يقال: ينبغي للملك السعيد أن يجعل المحاربة آخر حيله، فإن النفقة في كل شيء إنما هي من الأموال، والنفقة في الحروب إنما هي من الأنفس. فإن كان للحيل محمود عاقبةٍ، فذلك بسعادة الملك، إذا ربح ماله، وحقن دماء جيوشه. وإن أعيت الحيل والمكايد، كانت المحاربة من وراء ذلك. فأسعد الملوك من غلب عدوه بالحيلة والمكر والخديعة.

فمن ذلك ما يذكر عن بهرام جور أنه لما ملك بعد أبيه يزدجرد، بلغه أن ناحية من نواحي أطرافه قد أخذت، وغلب عليها العدو، فاستخف بها وأظهر الاستهانة به، حتى قوي أمر ذلك العدو واشتدت شوكته، فكان إذا أخبر بحاله، استخف بأمره، وصغر من شأنه. حتى قيل: إنه قد زحف إليك، ووجه جيوشه إلى قرار دارك.

فقال: دعوه فليس أمره بشيء. فلما رأى وزراؤه تهاونه وتراخيه عن أمر عدوه، واستهانته به، اجتمعوا إليه، فقالوا: إن تراخي الملك عن عدوه ليس من سياسة الملك، ولا تدبير المملكة، وقد قرب هذا العدو من قرار دار الملك، وأمره كل يوم في علو.

فقال بهرام: دعوه، فأنا أعلم بضعفه وصغر شأنه منكم. وأقبل على اللهو واللعب، وترك ما يجب عليه من الصمد لعدوه والقصد له. فلما دنا عدوه منه، وأشرف عليه، وخاف الوزراء ورؤساء أهل المملكة اجتياحه، اجتمعوا فتآمروا بينهم على توبيخ الملك وتعنيفه، وإعلامه ما قد أشرفوا عليه من البوار والهلكة. وبلغه الخبر، فأمر مئتي جاريةٍ من جواريه، فلبسن الثياب المصبغة المختلفة الألوان، ووضعن على رؤوسهن أكاليل الريحان، وركبن القصب.

وفعل بهرام كما فعلن، فلبس من ثيابهن المصبوغة، وركب قصبةً، وأذن للوزراء فدخلوا عليه. فلما رآهم، صاح بالجواري، فمررن يخطرن، وبهرام خلفهن يغني، وهن يغنين معه، ويصحن ويلعبن. فلما رأى ذلك وزراؤه، يئسوا منه واجتمعوا على خلعه.

وبلغه الخبر، فدعا جاريةً من خاص جواريه، وقال: لك الويل إن علم أحد من أهل المملكة ما أريد أن أفعل! ثم أمرها أن تحلق رأسه فحلقته، ودعا بمدرعة صوفٍ فتدرعها، وخرج في جوف الليل ومعه قوسه ونشابه. وتقدم إلى الجارية أن تخفي أمره، وتظهر أنه عليل إلى رجوعه إليها. ومضى وحده، حتى انتهى إلى طلائع العدو، فكمن في مغارٍ على ظهر الطريق، فجعل لا يمر به طائر في السماء، ولا وحش في البر، إلا وضع سهمه منه حيث أحب. وجعل يجمع كل ما صاد من ذلك، فجمعه بين يديه حتى صار كالشيء العظيم.

قال: فمر به صاحب طليعة العدو، فنظر إلى أمرٍ بهت له. فأخذه وقال: ويلك! ما أنت، ومن أنت، ومن أين أنت؟ قال: إن أعطيتني الأمان، أخبرتك! قال: فلك الأمان! قال: أنا غلام سائس، وإن مولاي غضب علي ـ وكان لي محسنًا ـ فأوجعني ضربًا، ونزع ثيابي، وحلق رأسي، وألبسني هذه المدرعة، وأجاعني. وإني طلبت غفلته، فخرجت أطلب شيئًا أصيده فآكله، فما أعجبني كثرة ما صدت، أردت أن أرمي بكل ما معي من هذه السهام، ثم أنصرف.

فأخذه، فحمله إلى الملك، فأخبره بقصته. فقال له الملك: ارم بين يدي! فرمى بين يديه، فكان لا يضع سهمه في طائرٍ ولا غيره إلا أصابه حيث أراد. فبهت الملك، وطال تعجبه. فقال: ويلك! في هذه المملكة من يرمي رمايتك؟ فضحك بهرام، وقال: أيها الملك! أنا أخسهم رمايةً، وأحقرهم قدرًا، وعندي جنس آخر من الثقافة. قال: وما هو؟ قال: ادع لي بإبرٍ. فدعا له بها، فأخذ إبرةً، فرمى بها على عشرة أذرعٍ، ثم أتبعها بأخرى فشكلها، ثم أتبعها بأخرى فشكلها كذلك، حتى جعلها سلسلةً قد تعلق بعضها ببعض.

فبهت الملك، وملئ قلبه رعبًا، فقال له: ويلك! ملككم هذا جاهل! أما يعلم أني قد قربت من قرار داره! فضحك بهرام، وقال: إن أعطاني الملك الأمان نصحته. قال: قد أعطيتك الأمان. قال: إن ملكنا إنما تركك استهانةً بأمرك، وتصغيرًا لشأنك، وعلمًا بأنك لا تخرج من قبضته؛ وذلك أني أخس من في دار مملكته، وأخملهم ذكرًا. فإذا كنت، وأنا بهذه الحال، أقتل بألفِ سهمٍ ألف رجلٍ، فما ظنك

بالملك، وله مئة ألف عبدٍ في قرار داره، أصغرهم شأنًا أكبر مني؟ فقال له الملك: صَدَقْتَني فيما قلت! ولقد خبرت عن بهرام من تصغيره لشأني، واستخفافه بأمري ما طابق خبرك، وما تركني أبلغ هذا الموضع من ملكه إلا لما ذكرت.

فأمر عظيم جيشه أن يرتحل من ساعته، ونادى في الناس بالرحيل، ثم خرج لا يلوي على شيء، وأطلق بهرام. فانصرف بعد ثالثةٍ، حتى دخل داره ليلًا، فلما أصبح قعد للناس، ودخل عليه الوزراء والعظماء، فقال: ما عندكم من خبر عدونا هذا؟ فأخبروه بانصرافه عنهم. فقال: قد كنت أقول لكم إنه صغير الشأن، ضعيف المنة. ولم يعلم أحد منهم ما كانت العلة في انصرافه.

مكايد كسرى أبرويز

كان كسرى أبرويز، بعد بهرام جور، صاحب مكايدٍ وخدع في الحروب، ونكاية في العدو. وكان قد وجه شهر براز لمحاربة ملك الروم، وكان مقدمًا عنده في الرأي والنجدة والبسالة ويمن النقيبة. فكان شهر براز قد ضيق على ملك الروم قرار داره، وأخذ بمخنقه، حتى هم بمهادنته، ومل محاربته، وطلب الكف عنه، فأبى ذلك عليه شهر براز.

واستعد له ملك الروم بأفضل عدة، وأتم آلة، وأحد شوكة، وتأهب للقائه في البحر، فجاءه في جمع لا تحصى عدته، قد أعد في البحر كل ما يحتاج إليه من مالٍ وسلاحٍ وكراعٍ وآلةٍ وطعام وغير ذلك، والسفن مشحونة موقرة. فبينا هو كذلك إذ عصفت ريح في تلك الليالي، فقلعت أوتاد تلك السفن كلها وحملتها إلى جانب شهر براز، فصارت في ملكه.

وأصبح ملك الروم قد ذهب أكثر ما كان يملك من الأموال والخزائن والعدد والسلاح، فوجه شهر براز بتلك الخزائن والأموال إلى أبرويز، فلما رأى أبرويز ما وجه به شهر براز، كبر في عينه، وعظم في قلبه، وقال: ما نفس أحق بطيب الثناء، ورفيع الدعاء، والشكر على الفعل الظاهر من شهر براز! جاد لنا بما لا تسخو به النفوس، ولا تطيب به القلوب! فجمع وزراءه، وأمر بتلك الأموال والخزائن، فوضعت نصب عينيه، ثم قال لوزرائه: هل تعلمون أحدًا أعظم خطرًا وأمانةً، وأحرى بالشكر من شهر براز؟

فقامت الوزراء، فتكلم كل واحدٍ منهم، بعد أن حمد الله وشكره ومجده، وأثنى على الملك وهنأه، ثم ذكر ما خص الله به الملك من يمن نقيبة شهر براز وعفافه وطهارته ونبله وعظيم عنايته. حتى إذا فرغوا، أمر بإحصاء تلك الأموال والخزائن، ثم قام أبرويز فدخل إلى نسائه.

وكان للملك غلام يقال له رُسْتَه، وكان سيّئ الرأي في شهر براز؛ فقال: أيها الملك! قد ملأ قلبك قليل من كثيرٍ، وصغير من كبير، وتافه من عظيم، خانك فيه شهر براز، وآثر به نفسه. ولئن كان الملك مع رأيه الثاقب، وحزمه الكامل، يظن أن شهر براز أدى الأمانة، لقد بعد ظنه من الحق، وخس نصيبه.

فوقع في نفس أبرويز ما قال رسته، فقال له: ما أظنك إلا صادقًا، فما الرأي عندك؟ قال: تكتب إليه بالقدوم، وتوهمه أن بك حاجةً إلى مناظرته ومشاورته في أمرٍ لم تَجُزِ الكتابة به، فإنه إذا قدم لم يخلف ما يملك وراءه؛ إذ كان لا يدري أيرجع إلى ما هناك أم لا؛ فيكون كل ما يقدم به نصب عينيك.

فكتب أبرويز إلى شهر براز يأمره بالقدوم عليه لمناظرته ومشاورته في أمرٍ يدق عن الكتاب والمراسلة. فلما مضى الرسول، أردفه برسولٍ آخر وكتب إليه: إني كنت كتبت إليك آمرك بالقدوم لأناظرك في مهم من أمري، ثم علمت أن مقامك هناك أقدح في عدوك، وأنكى له، وأصلح للملك، وأوفر على المملكة. فأقم، وكن من عدوك على حذر، ومن غرته على تيقظ؛ فإنه من ذهب ماله، حمل نفسه على التلف أو الحتف. والسلام.

وقال للرسول الثاني: إن قدمت فرأيته قد تأهب للخروج إلي وظهر ذلك في عسكره، فادفع إليه هذا الكتاب.. وكتب: أما بعد، فإني كتبت إليك، وقد استبطأت جواب قدومك وحركتك، وعلمت أن ذلك لأمرٍ تصلحه من أمر نفسك أو مكيدة عدوك. فإذا أتاك كتابي هذا، فخلف أخاك على عملك، وأغذ السير، ولا تعرج على مهم ولا غيره، إن شاء الله.

وإن لم تره استعد للخروج، ولا تأهب له، فادفع إليه الكتاب الأول. فقدم الرسول الثاني، وليس لشهر براز في الخروج عزمٌ ولا خاطر، ولا هم به، فدفع إليه الكتاب الأول.

فقال شهر براز: أول كل قتلةٍ حيلة. وكان خليفة شهر براز بباب الملك قد كتب إليه ما كان من قول رسته للملك، وما كان من جواب الملك له. ثم نازعت أبرويز نفسه، ودعاه شرهه إلى إعادة

الكتاب إلى شهر براز بالقدوم عليه. فلما قرأ شهر براز كتابه الثالث، قال: كان الأمر قبل اليوم باطنًا، فأما اليوم فقد ظهر.

فلما علم أبرويز أن نية شهر براز قد فسدت، وأنه لا يقدم عليه، كتب إلى أخي شهر براز: إني قد وليتك أمر ذلك الجيش، ومحاربة ملك الروم، فإن سلم لك شهر براز ما وليتك، وإلا فحاربه!

فلما أتاه كتابه أظهره، وبعث إلى شهر براز يخبره أن الملك قد ولاه موضعه، وأمره بمحاربته إن أبى أن يسلم إليه ما ولاه. فقال له شهر براز: أنا أعلم بأبرويز منك، هو صاحب حيلٍ ومكايد، وقد فسدت نيَّتهُ لي ولك، فإن قتلني اليوم قتلك غدًا، وإن قتلك اليوم كان قتلي غدًا أقوى.

ثم إن شهر براز صالح ملك الروم، لما خاف أبرويز، وتوثق كل واحدٍ منهما من صاحبه، واجتمعا على محاربة أبرويز. فقال له شهر براز: دعني أتولى محاربته، فإني أبصر بمكايده وعوراته. فأبى عليه ملك الروم، وقال: بل أقم في دار مملكتي حتى أتولى أنا محاربته بنفسي.

فقال شهر براز: أما إذ أبيت علي، فإني مصور لك صورةً، فاعمل بما فيها، وامتثلها. ثم صور له كل منزلٍ ينزله بينه وبين أبرويز في طريقه كله، وأي المنازل ينبغي له أن يقيم فيه، وأيها يجعلها طريقًا وسيرًا ماضيًا، حتى إذا أقامه من طريقه كله على مثل وضح النهار، قال له: فإذا صرت بالنهروان، فأقم دونه، ولا تقطعه عليه، واجعله منزلك، وجهز جيوشك وعساكرك إليه. فمضى ملك الروم نحوه.

وبلغ أبرويز الخبر، فضاق به ذرعه، وارتج عليه أمره، فكان أكثر جنوده قد تفرقوا لطلب المعاش؛ لقطعه عنهم ما كان يجب لهم من إقطاعاتهم وأرزاقهم، فبقي في جندٍ كالميت، أكثرهم هزلى أضراء. وكان ملك الروم يعمل على ما صوره له شهر براز في طريقه كله، حتى إذا أشرف على النهروان، عسكر هناك، واستعد للقاء أبرويز. وقد بلغه قلة جموعه، وتفرق جنوده، وسوء حال من بقي معه. وكان في أربعمئة ألفٍ، قد ضاقت بهم الفجاج والمسالك، فطمع في قتل أبرويز ولم يشك في الظفر به.

فدعا أبرويز رجلًا من النصارى، كان جده قد أنعم على جد النصراني واستنقذه من القتل أيام قتل ماني، وكان من أصحابه الذين استجابوا له، فقال له أبرويز: قد علمت ما تقدم من أيادينا عندكم أهل البيت قديمًا وحديثًا. قال: أجل أيها الملك! وإني لشاكر ذلك لك ولآبائك. قال: فخذ هذه

العصا، وامض بها إلى شهربراز، فأته في قرار ملك الروم، فادفعها إليه من يدك إلى يده. وعمد إلى عصًا مثقوبةٍ، فأدخل فيها كتابًا صغيرًا منه إلى شهر براز: أما بعد، فإني كتبت إليك كتابي هذا واستودعته العصا، فإذا جاءك فحرق دار مملكة الروم، واقتل المقاتلة، واسب الذرية، وانهب الأموال، ولا تتركن عينًا تطرف، ولا أذنًا تسمع، ولا قلبًا يعي، إلا كان لك فيه حكم. واعلم أني واثب بملك الروم يوم كذا وكذا، فليكن هذا وقتك الذي تعمل فيه ما أمرتك.

قال: وأمر للنصراني بمالٍ، وجهزه، وقال: لا تعرجن على شيءٍ، ولا تقيمن يومًا واحدًا، وإياك ثم إياك أن تدفع العصا إلا إلى شهر براز، من يدك إلى يده! ثم ودعه، ومضى النصراني.

فلما عبر النهروان اتفق أن كان عبوره مع وقت ضرب النواقيس، فسمع قرع عشرة آلاف ناقوسٍ أو أكثر، فانهملت عيناه، وقال: بئس الرجل أنا إن أعنت على دين النصرانية، وأطعت أمر هذا الجبار الظالم!

فأتى باب ملك الروم، فاستأذن عليه، فأذن له، فأخبره بقصة أبرويز حرفًا حرفًا، ثم دفع إليه العصا، فأخذها ونظر فيها، ثم استخرج الكتاب منها، فقرئ عليه، فنخر وقال: خدعني شهر براز! ولئن وقعت عيني عليه، لأقتلنه!

وأمر، فقوضت أبنيته من ساعته، ونادى في الناس بالرحيل، وخرج ما يلوي على أحدٍ.

ووجه أبرويز عينًا له يجيئه بخبره؛ فانصرف إليه، فأخبره أن الملك قد مضى ما يلتفت لفتةً، فضحك أبرويز وقال: إن كلمةً واحدةً هزمت أربعمئة ألفٍ لجليل قدرها، ورفيع ذكرها!

خاتمة الكتاب

وإذ قد انتهينا إلى هذا الموضع من كتابنا هذا، وأخبرنا بأخلاق الملوك في أنفسها وما يجب على رعاياها لها، بقدر وسع طاقتنا، فلنختم كتابنا هذا بذكر من بعثنا على نظمه، وكان مفتاحًا لتأليفه وجمعه.

ولنقل: إنا لم نر في صدر هذه الدولة المباركة العباسية، ولا في تاريخها وأيامها إلى هذه الغاية، فتًى اجتمعت له فضائل الملوك وآدابها ومكارمها ومناقبها، فحاز الولاء من هاشمٍ والخِصِّيصَى من خلفاء بني العباس الطيبين، والتبني من المعتصم بالله، وإخوته الأبرار من أئمة المؤمنين، وورثة خاتم النبيين، عدا الأمير الفتح بن خاقان، مولى أمير المؤمنين.

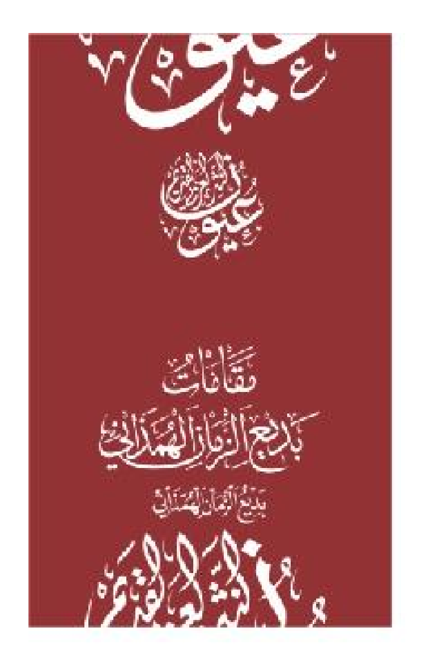
فلتهنئه هذه النعمة المهداة! وبارك له واهبها، وزاده إليها الدأب عليها حتى يبلغ به أرفع يفاعها، وأسنى ذروتها، وأعلى درجاتها، في طول من العمر، وسلامةٍ من عوادي الزمان وغيره، ونكباته وعثراته، فإنه رحيم كريم.


البخلاء
الجاحظ


الأذكياء
ابن الجوزي


الفرج بعد الشدة
التنوخي


كليلة ودمنة
ابن المقفع


مقامات
بديع الزمان الهمذاني
بديع الزمان الهمذاني

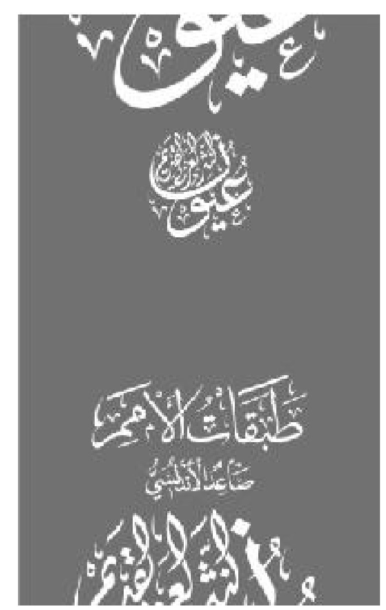

رحلة ابن جبير
ابن جبير


أشعار النساء
المرزباني


العقد الفريد
ابن عبد ربه


الإمتاع والمؤانسة
التوحيدي


الشعر والشعراء
ابن قتيبة

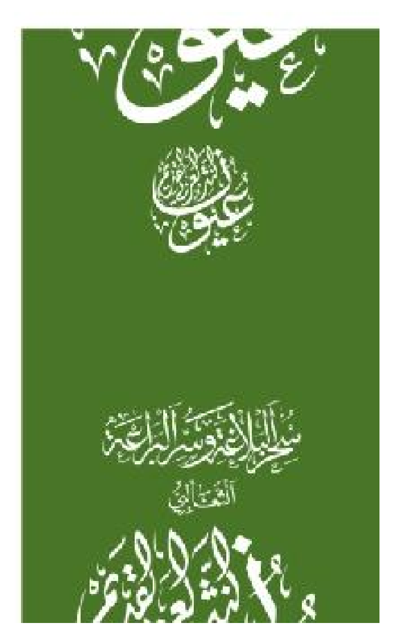

طبقات الأمم
صاعد الأندلسي

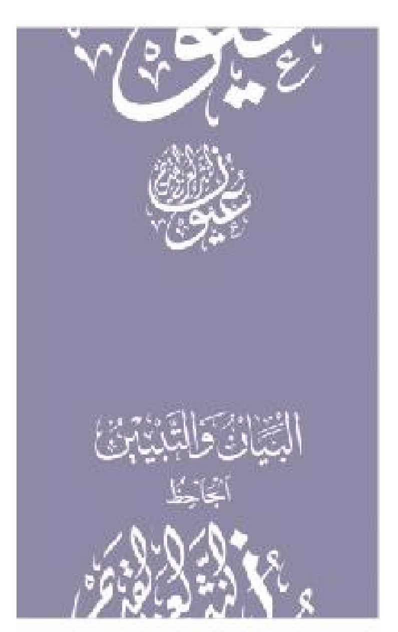

حي بن يقظان
ابن طفيل

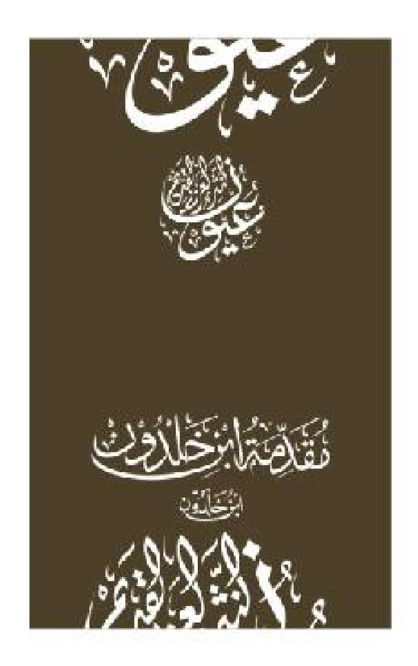

طوق الحمامة في الألفة والألاف
ابن حزم


طبقات فحول الشعراء
ابن سلام


الصداقة والصديق
التوحيدي

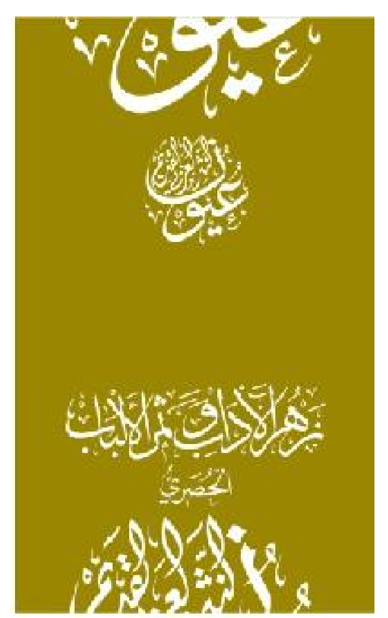

سحر البلاغة وسر البراعة
الثعالبي

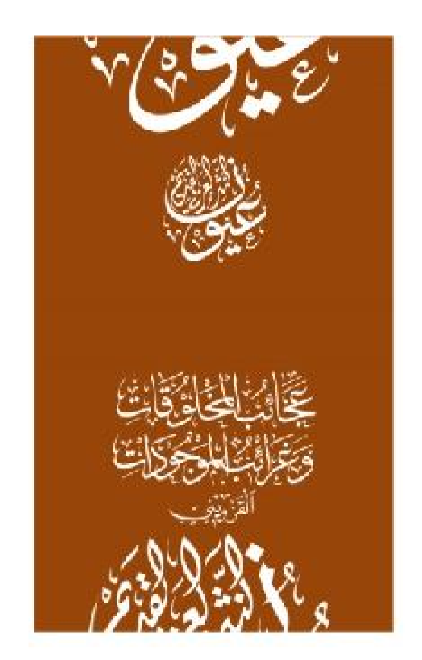

البيان والتبيين
الجاحظ


مقدمة ابن خلدون
ابن خلدون


الكامل في اللغة والأدب
المبرد


العمدة في محاسن
الشعر وآدابه ونقده
ابن رشيق


زهر الآداب وثمر الألباب
الحصري

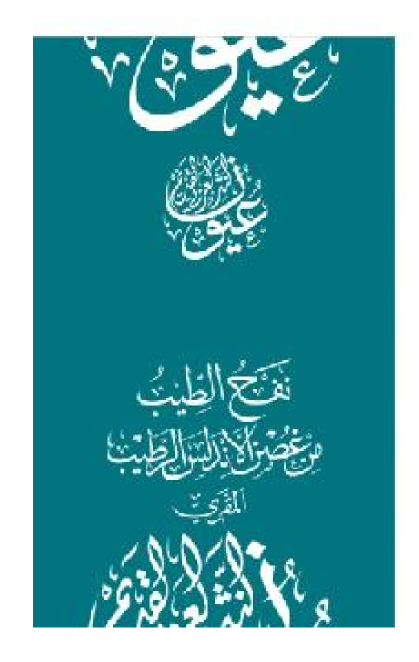

عجائب المخلوقات
وغرائب الموجودات
القزويني


الأغاني
الأصفهاني


الحيوان
الجاحظ

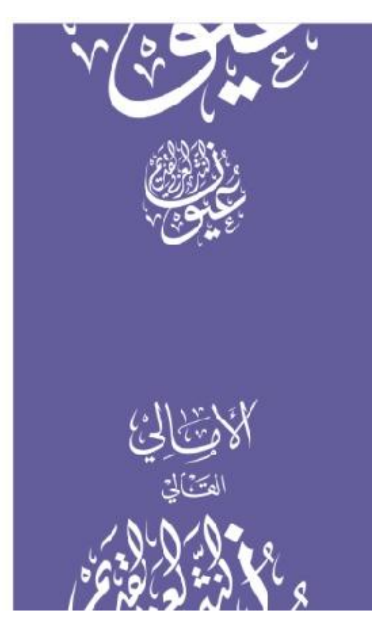

تجارب الأمم وتعاقب الهمم
ابن مسكويه


رحلة ابن فضلان
ابن فضلان


نفح الطيب
من غصن الأندلس الرطيب
المقري


خزانة الأدب ولب لباب
لسان العرب
البغدادي


يتيمة الدهر
الثعالبي


الأمالي
القالي



Notes

[1←]
أي: قاضي القضاة عند الفُرس.

[2←]
الغَمَر: زنخ اللحم وما يعلق باليد من دسمه.

[3←]
أي: شاكلتها.

[4←]
الأساورة: الفرسان.

[5←]
المؤوف: المصاب بآفة.

[6←]
الأُبْنة: العيب.

[7←]
الوَنَج: الونّ عند العرب، الصنج.

[8←]
بقوانين.

[9←]
الفخر والكبر.

[10←]
أي: قلنسوة عالية.

[11←]
العائر: ما لا يُدرَى راميه.

[12←]
التظاهر بالغفلة من دلائل السخاء الممزوج بالمروءة.

[13←]

أوقعت طستًا.

[14←]
كناية، بمعنى: لأنوهن باسمك.

[15←]
الخضوع والانقياد.

[16←]
أي: مصَّتْ عظمه.

[17←]
أي مكروه.

[18←]
عار الفرس: ذهب على وجهه كأنه متفلّت.

[19←]
الطبع: الشَّيْ والعيب.

[20←]
الحاوي هنا بمعنى الحيّز.

[21←]
وقذه: أوجعه.

[22←]
الأنزال: القوم النازلون على الإنسان، أو ما هُيِّئ للضيف أن ينزل عليه.

[23←]
أي أن يؤدّي الخراج إلى السلطان الأكبر فراراً من العمّال.

[24←]
يعني الملك.

[25←]
أي يزدجرد الأثيم.

[26←]
أي: الفأس.